المركز القومي للترجمة

خوان جويتيسولو

الأربعينية

ترجمة: عبير عبد الحافظ



2510

سلسلة الإبداع القصصي

الأربعينية

رواية

تأليـف: خـوان جويتيسولو
ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ

2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2510
- الأربعينية
- خوان جويتيسولو
- عبير محمد عبد الحافظ
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

La Cuarentena

By: Juan Goytisolo

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: 27354524 فاكس: 27354554
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جويتيسولو ، خوان.
الأربعينية: رواية / تأليف خوان جويتيسولو؛ ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ .-
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٥٢ صفحة. المقـــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
(سلسلة الإبداع القصصى؛ ٢٥١٠).
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٧١٨٩٥٦٩
١ - القصص الأسبانية.
أ- عبد الحافظ، عبير محمد (مترجم).
ب - العنوان.
جـ - السلسلة.

٨٦٣

رقم الإيداع ٢٢٣٥٠ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 956- 9

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

إهــــــداء

إلى أخــــي أحمـــــد . .

مرشـــــدي الأول

شكر واجب

في البداية أوجه الشكر العميق للكاتب الإسباني خوان جويتيسولو، عن هذا العمل المبدع «الأربعينية» الذي اقترب فيه من العوالم العربية الإسلامية، وطرح رؤية استشراقية كاشفة بأعين غربية. وقبل أي شيء أستاذي أ.د. محمد أبو العطا، أحد فرسان الدراسات الإسبانية الأجلاء في مصر والوطن العربي، فترجمات أعمال الكاتب الإسباني "خوان جويتيسولو إلى العربية بالتعاون مع المركز القومي للترجمة كانت بمبادرة منه، وكذلك ترشيحي لترجمة هذا العمل القيم. وفي النهاية لا يسعني إلا أن أشكر الشاعر أحمد الشهاوي الذي لم يدخر جهدًا في قراءة المخطوطة في صورتها النهائية.

عبير عبد الحافظ

كلمة المترجمة

جويتيسولو و«الأربعينية» والاستشراق الإسباني الجديد

1 – كونية النص السردي

يعد الكاتب الإسباني خوان جويتيسولو (برشلونة، 1931) أحد أشهر القامات الأدبية في الأدب الناطق بالإسبانية. تنوع نتاجه الأدبي ما بين الرواية، والقصة، وأدب الرحلات، والدراسات النقدية والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامه بقضايا كونية، والتعددية الثقافية، ورغبته الجادة وعمله الحثيث من أجل سبر أغوار عوالم مغايرة، والتعرف على الآخر معرفة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثل آراء النقاد ولجان التحكيم التي تناولت أعماله وارتأت التعددية والانخراط في الثقافات المتنوعة ليس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء ودروبه بينها وبين الثقافة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التي تحل فيها الثقافة الإسلامية العربية ركنًا لا يقبل النزاع. بهذا الشكل تطل كتابات جويتيسولو بسماتها الكونية السردية لتجمع بين الشرق والغرب والأيديولوجيات الدينية والفكرية بأنواعها، وهو ما تتكئ عليه بنية رواية «الأربعينية» (1991).

وهو ما أكدته لجنة جائزة «خوان رولفو» المكسيكية حين منحت جويتيسولو الجائزة الأدبية الرفيعة، وارتأت نقاط القوة في كتابته حيث: «تعمق كتابات جويتيسولو المتنوعة الحوار بين الثقافات العربية والمسيحية واليهودية (...). فمنذ صدور روايته «الكونت دون خوليان»، لم تحد أعماله عن مسارها الذي خطته في تلاحم وانسجام واضح وإبداع حر وأصيل».

2 ـ حتمية الوجود العربي الإسلامي

بهذا الشكل فإن العالم العربي الإسلامي يعكس واحدًا من الفضاءات السردية المفضلة لدى الكاتب الإسباني، الذي عرف عنه ولعه الشديد بكل ما هو عربي إسلامي في العديد من المناحي التاريخية والتراثية والأدبية والسياسية، وعلاقته المؤثرة في الغرب بشكل عام و إسبانيا على وجه التحديد، فيعمد في كتاباته إلى التركيز على هذا الجانب وإبراز اللحمة التاريخية التي رسخت التواصل والاندماج الثقافي بين إسبانيا والعرب والإسلام. ويشير جويتيسولو في كثير من الأحيان إلى الجانب العربي الإسلامي المتجذر في كيانه، وهو ما يتسبب في إثارة غضب بعض بني جلدته، فيعبر عن دهشته من تجاهل هذا الباع الثقافي في بلاده، الذي يقتصر على بعض الاهتمام المحدود من قبل المستعربين المتخصصين في بلاده، فيقول: «يتجاهل الجميع التراث العربي الإسلامي بالكامل في إسبانيا باستثناء بعض المستعربين

المتخصصيـن، ذلك على الرغم من معرفتنا بأهمية هذا العنصر في تكوين بلادنا الثقافي».

ويستكمـل جويتيسولو من هـذه البؤرة الروائيـة المسيرة التي بدأها الكاتـب الأرجنتيني خورخي لويس بورخس؛ حيث كان من أوائـل الكتـاب المعاصرين فـي الأدب الناطـق بالإسبانية، الذين ألقوا الضوء علـى التراث العربي الإسلامـي، ودمجه واستلهمه كمصدر للكتابـة الجديدة في حقبة الطليعة في أمريكا اللاتينية بشكل عـام، والأرجنتين بشكل خاص، ومن أبـرز هذا النتاج مجموعة «الألـف» التي برزت فيها عناصر سرديـة مستوحاة من ألف ليله وليلة والقرآن، والفلسفة والتصوف الإسلامي.

فيقول في سيرته الذاتية:

«لكوني إسبانيًا فـي قطالونيا، وفرنسيًا في إسبانيا، وإسبانيًا في فرنسـا، ولاتينيًا في أمريكا، ونصرانيًا فـي المغرب، وعربيًا في كل الأزمنة (...) كان الصراع العائلي بين ثقافتين أول إشارة في تصوري الآن لحالة مستقبلية من الانكسارات والتوترات النشطة، التي تؤكد لي ضرورة أن أكون خارج أسوار أيديولوجيات أو نظم أو كيانات مجردة اتسمت دائماً بالانكفاء على الذات والتقوقع».

فـي هذا الصـدد، يسعى الكاتـب الإسباني في أعمالـه المتأثرة بالوجود العربي بشكل عام، وفي رواية الأربعينية بشكل خاص؛

لإقامة مقاربات أيديولوجية وموزاييك بنائي قوامه مشاهد مؤسسة على الباع الثقافي والتراث الإسباني والعربي الإسلامي، فينبذ بهذا الشكل الهيمنة الثقافية الغربية، واعتبار هويتها وتكوينها يتفوقان على جميع الشعوب والثقافات غير الأوروبية، لتقر بحسب إدوارد سعيد «بالتفوق الغربي على التخلف الشرقي».

3ـ الأربعينية واستشراف الربيع العربي

جدير بالذكر، أن الاهتمام الذي أولاه الكاتب الإسباني لهذا الجانب تمثل جليًّا في باقة من أعماله، ارتبطت بعالمنا العربي الإسلامي، وليس بالشرق في مجمله بشكل عام، مثل العديد من المستشرقين. فترى عناوين أعماله مثل «مقبرة»، «ملوك الطوائف»، «مقاربات إلى العالم الإسباني»، «مقاربات جاودي في كابادوثيا»، «القبلة»، «مشاهد من الحرب: ساراييفو، الجزائر، فلسطين، الشيشان»، وغيرها من الأعمال..

وبالنظر إلى اهتمام الكاتب بكل ما هو عربي إسلامي يتم طرح الرؤى الثلاث التالية:

1- هل يهدف جويتيسولو من خلال الأربعينية إلى تقديم عمل استشرافي كاشف للعوالم العربية الإسلامية والصوفية؟

2- أم يهدف لابتداع تكوين روائي يستند إلى العناصر العربية كمادة وأساس أسوة بـ بورخس مثلاً؟

3-أم يسعى للجمع ما بين الغايتين في قالب واحد واستشراف مستقبل الأمة، فتصبح الأربعينية مرحلة تتنبأ بالثورة؟

بهذا الشكل يفسح الطريق لسطوة التأويل الأدبي الذي يعرفه هايدجر على أنه ليس شيئاً نفعله بل شيئاً علينا أن ندعه يحدث، فعلينا أن نفتح أنفسنا إلى النص بصورة سلبية «مخضعين أنفسنا لكينونته الملغزة التي لا تنضب، متيحين له أن يستنطقنا».

في كل الأحوال يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يومًا التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلة روحية صوفية، ينطلق منها؛ ليرصد في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعدًا إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج. يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري، و«المراتب السبعة» لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيى الدين بن عربي، مرورًا بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومى، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي، إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والإسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيفيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث، وغيرهم. وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دومًا خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة؛ حيث

المساجد، والمقابـر والأضرحة، واستشـراف الأجواء السحرية الغامضة التـي تعقب الأربعينية، فضلاً عمـا للقاهرة من باع على المستوى العربي الذي تعتبر جغرافيًا وسياسيًا في مركزه.

وتدلـل الرواية على الرؤية التأملية والبصيرة النافذة التي تمكن الكاتـب الإسباني من خلالهـا من سبر أغـوار المجتمعات العربية بشـكل عام ومصر والقاهرة بشكل خاص، حتى إنه من خلال آلية قـراءة ذكية متأنيـة يصبح بالإمكان التنبؤ باقتـراب حدث جلل في هذه المجتمعات، وهو ما تمثل بعد ذلك في ثورات الربيع العربي؛ حيث تضافرت رؤية جويتيسولـو مع العديد من الكتابات الروائية المصرية، التي تنبـأت ودفعت بشكل أو بآخر من خلال الاستلهام والتصريح الروائي باقتراب موجة الاحتجاجات والتغيير في العالم العربي، حتى إنه يذكر ميدان التحرير، وتناقضات القاهرة البشرية والجغرافية واقتراب نقطة الانفجار، فيستشهد بوصـف ابن بطوطة عـن المدينة (ذات الأقاليم العريضة، والبلاد الأريضة المتناهية)، ثـم يصفها في واقعهـا الحالى أنها مدينة «مـن دون رحمة» تنتظر وتستلهم الرحمة كطوق نجـاة بالشكل الذي يرتأيه شعبها، وكانت الثورة.

عبير محمد عبد الحافظ

القاهرة 2012

-1-

تفترض كتابة نص ما وجود شبكة من العلاقات الرقيقة، تربط ما بين العقدات التي تنسج هذه الشبكة، وتتلاحم فيها الأحداث: لحظات الحياة، الدعابات، الأسفار، المصادفات. وتمتزج القراءات المحتملة بالفانتازيا والصور، من أجل دمج هذا التشابك المؤلف من نقاط التضاد والالتقاء، وجدائل الذاكرة والومضات المباغتة، والتيارات المتعاقبة.

عنّت لي فكرة كتابة هذا النص عشيّة العام الذي سبق الحرب. كنت قد أحكمت - مسبقًا - هذا الموضوع عند التفكير في لحظة الانتقال إلى الآخرة، ودفعني إليه الرحيل المباغت لصديقة، ورغبتي في معاودة التواصل لعلاقتنا الرهيفة من خلال الحكي.

اعتدنا أن ننهل معًا من قطوف كتب ابن عربي، وميجيل آسين بالاثيوس، ونصوص متعددة تحكي قصة الإسراء والمعراج للنبي، والقصائد الصوفية، وكتاب «المرشد الروحى» لمولينوس الذي حقّقه أفضل شعرائنا الأحياء، وكانت هي تحمله في اليوم الذي غابت فيه عن ناظري.

وشكّلت الإشارات المرجعية للصوفي أبي العباس المرسي، المعلم الأكبر، وخاتم الأولياء إلى عين الخيال والمملكة الوسيطة، التي تحضر بها الأرواح حين تخرج من قبورها النواة الأولى لعمل

فرض وجوده في نفسي، بشكل قاطع، حين قرأت هذه السطور التي سأتلوها:

«وحين تطير الأرواح إلى العالم الوسيطي أو البرزخ، تواصل الحضور في أجسادها، وتصير هذه إلى صورة ناعمة مثل التي يرى المرء نفسه عليها في الأحلام. فالعالم الآخر ما هو إلا مقر تتبدل فيه الأشكال على الدوام، على النحو نفسه في الأفكار المارقة في الأبعاد الداخلية له».

وفي اللحظة التي تأهبت فيها لأبدأ تأليف الكتاب في صورته المادية، توفيت. وبعد الوقت القصير الذي عبرت خلاله إلى اللانهاية، انطلقت من نفسي، وأدركت على الفور كينونة الخفة والسيولة.

تطلعت إلى نفسي من الخارج، أصم وأعمى، بلا حماس، بلا شعور، محاطًا باهتمام ذويي والحزن الصامت لزوجتي. لبثت لبرهة في حجرتي، محاولاً ألا أقاطع برخاوة وجودي التحركات التعسة، وانتظرت وصول المغسّل لأتيقن من أنه يقوم بالشعائر وفقًا لوصيتي الأخيرة. وعلى الرغم من أن مفهوم الزمن يتلاشى في النقطة الواصلة ما بين العالمين، أذكر أنني قمت - ذهنيًا - بتنظيم نص هذا الكتاب وصف صفحاته خلال الفترة التي تهيم فيها الأرواح في فترة الأربعينية.

-2-

وأيضًا هناك؟

تمكنت النغمات الأولـى للكونشرتو من الاستيلاء بخفة ونعومة على الأجواء المحيطة بألفة مُترعة يشوبها الغموض.

أكنـت أعبر بهو الفنـدق الشاسـع؟ أكنت أصعـد بالفعل في هذا المصعـد بهذه السرعة؟ أكنت أطير على ارتفاع 9 آلاف متر وعلى متن طائـرة تابعة للخطـوط الجويـة التركية، مثلما حـدث قبلاً، وأذكره جيدًا، خلال رحلة طيران داخلي ما بين مدينتي إرزوروم وأنقـرة؟ هل انبعثت هـذه الأصوات من أجهـزة مكبرة للصوت، خُبئت ببراعة ضمـن تصميم سياحي وظيفي، أم هي العلبة المبطنة بنسيج ناعـم التي تحمل الزبائـن الصامتين المهذبيـن، ثم تجعلهم يهبطـون بعد ذلـك؟ أم هو اصطفـاف مقاعد الطائـرة في لحظات التوتر التـي تسبق إقلاع نعش ما في هذه الطائرة أو هبوطه؟ كيف يمكـن تفسير هذه النغمات الدقيقـة التي بدت كأنها تنبعث من أماكن مبهمة بـلا نهاية من هذا الفضـاء الخاص بعالـم الأحلام، ضبابي وغير حقيقي؟ ربما تكون قد انبعثت من بحر سحيق بلا ضفاف يعكر تأمله النظـر! أم تكون أثرًا مشعًا من مسرح الأضواء، ومضات، بريق، شرارات، مع إخفاء التقلبات غير القابلة للكشف؟

أو لعلها من أصل ضوئي صافٍ، مثل الهالة التي كانت تحيط بها حين تغمرها خيوط الضـوء المصبوغة المترعة، لتفحص باهتمام ساكن الجبال الوعرة الشاحبة، ذاتها القمم التي تستقر فوقها السحب والسماء الصافية الوادعة كأنها عمامات، فيبدو سموها الخالص.

قالت: لكن لم يكـن هناك مصاعد أو فنادق، أو حتى طائرات. لـو كانت موجـودة بالفعل لاصطدما بها فـي طريقهما. على بقائها هناك طوال هـذه المدة، لم تلمح طائرة أو تسمع أزيزها، بالرغم من مراقبتها الدائمة .

علـت وجهها ابتسامة بينما كانـت تتحدث، مثل تلك الحقبة التي اعتادت فيهـا أن تتردد بانتظام على الأستوديـو ومعها النصوص منسوخـة على الآلة الكاتبة، وكمـا اعتادت كانت تبدو على وجهها تلـك النظرة حين تخـرج من حقيبتهـا علبة السجائـر «جولويزيز بلـوز»، فتشعل سيجارة، وتبحث بعصبيـة بادية بين أكوام الكتب المتراكمة والمجلات عن منفضة سجائر، عادة لم تتخلص منها في أثناء حديثنا، على الرغـم من وضوح الأمر، فلم تكن هناك حقيبة ولا تبغ ولا ولاعة، لكن يبدو أنها كانت خاضعة لاصطناع ملامح وحركات جوفاء، أو الانصياع لعادة تعرفها ببديهتها، وإن لم تعد ذات نفع الآن.

من أين جاءت يا تـرى هذه النوتة الموسيقية كثيفة الألحان لهذا الكونشرتو، الذي انسابـت ألحانه في عالمه السابق؛ كأنها الوحيدة

من نوعها، في تناغم محكم ما بين الشقاء والحنين؟ أكان الصوت القاسي للجيتار الذي يعزفه الأعمى؟ أم اللحن الممزق لعازف الناي في جذوة نشوته البهيجة.

حدق كل منهما بالآخر، تقاسما الاضطراب الذي شعرا به، منبهرين بالبريق المتنامي للفلك الذي يتحركان فيه، مشعًّا يفيض نوره منسكبًا عليهما، يغمرهما، مثله مثل الأشعة السينية، يخترق كيانهما وعظامهما، فيبدو أنهما منبهران بالبريق والفيض الكثيف الذي يشع بهما جسداهما أثناء خلوة مباغتة وتلقائية مع النفس.

قالت إنها لم تتفاجأ حين رأته يصل، كان فراقهما قاسيا. تنبأت بغموض أن علاقتهما لم تنقطع. أرادت أن تخبره بشيء ما على عجل، ولم تستطع، ما حدث ببساطة أنه قد تأجل بعض الوقت.

والآن كل شيء سهل ويسير، بالرغم من أن الأحزان السابقة كانت تدفعها إلى البحث في الدخان عن أي دعم، وإن كان هينًا. كانت قريبة منه وفي الوقت نفسه بعيدة، كأنها غارقة في حلم آخر، إلا أنه يتركها ساكنة، تشعر بخواء، بالرغم من عاطفته الشحيحة غير الكافية.

هل تسبب الندم والعاطفة التي جانبت اللقاء بعد انقطاع مفاجئ، لم تستوعبه، في جعل دموعها تفيض في عينيها الجافيتين، تلك

الدموع التي غاصت في ذاك الهجران الداخلي، وإن كان متجذرًا من أثر إيمان راسخ، بمنأى عن التوبة والألم؟

في نصف الدائرة الرمزي، ذاك المكان الذي تلتقي فيه الأطياف الصديقة الأليفة منذ أزمان سحيقة، وصار تدريجيًّا مثل الصحراء نتيجة للخراب والوباء وكبر السن. لماذا قابلها هي بالذات، ولم يلتق بمسافر أخر ممن ولجوا حديثًا هذا العالم الرهيف؟ ألم تكن تحتاج في موضعها هذا إلى دواء ناجع، بدلاً من مسكنات وحسب؟

ما الطرق التي دلتها على نفسها، كأنها عادت إلى مكانها الأثير، عبر هذا المجال الضبابي الخفيف غير المحدود؟ أهو التلاحم القادر على استدعاء الكونشرتو أم هي علامة مطمورة أكثر حميمية؟

للمرة الأولى، تأتي إليه من دون أن تكون بحاجة إلى استشارته بأمر ما، أو للاستفادة من معرفته، التي اعتاد أن يطلق عليها بسخرية معرفة عوراء، شعر أنه بعيد عنها وعن الملمس الناعم لتفاصيل جسدها.

هناك ستكون قادرًا على الاستفادة من خبرتهما المحتملة، والحنكة المكثفة التي حولت الذهول المبدئي لخفتها إلى حالة من الغبطة.

كانت تحادثه وقد بدا وجهها رقيقًا ناعمًا، مثل وجه شخص لا يسرف في الأمور الظاهرية، ويظل هادئًا في أعماق نفسه. شعرها

الخفيف، وعيناها الزرقاوان والغمازتان اللتان لا تخطئهما العين، حين تبتسم برقة وشيء من الخفر.

جعلا يصفقان ويلهوان بينما يستمعان للكونشرتو.

البرق والبريق المتقطع النابض يتزايد ضوءهما الكثيف في سماء عليا، حيث لا شروق ولا غروب، لا يمين ولا يسار، لا علو ولا دنو، أحاطت بهما سحب في شكل خيوط، سائلة أم كثيفة، لم يعرفا أهو ذاك السحاب الرقيق، أم المتراكم، أهي غيوم أم سديم؟

أكان كل هذا شبيهًا بالماضي، مثلما زعمتْ؟ أم أن الأمر محض غواية أم حيلة ولهو بالحواس؟

شرعا يسيران متشابكي الأيدي. يتبقى لك أربعون يومًا، قالت له: بعدها يتغير مقرك، ومن يعلم هل سنرى بعضنا البعض مرة أخرى؟ سأرشدك وأجعلك ترى ما رأيته أنا منذ أن ابتعدت عن كل ما هو محسوس بينما أرتقي درجات السلم. اصغَ للموسيقى، ونغماتها الحزينة النافذة. استبدلوا بجيتار الأعمى صوت الناي الذي يأسرك ويعزلك عما حولك.

لا تخطط لشيء، لا تخطُ بقدمك. ألم تخبرني أنك أهديت زوجتك في لقائكما الأول أسطوانة لـ«ميلز دافيز» عنوانها «كونشرتو أرانخويث»؟

أطللت برأسك، أو بما خلت أنه رأسك، من دون أن تتمكن من التيقـن من هذا الظن بالنظر إلى مـرآة تغيثك، فتطلعت إلى المشهد القاســي لأمم بأكملهـا، آلاف وآلاف المخلوقات الغريرة العمياء، الهاربــة مــن أراضــ متكلســة وحجرية، وســط مئــات الغابات والأنهــار الجافــة. أكان تهديــدًا مبدئيًا لألفية مشئومــة، من شأنها تشتيـت الشعوب، في صخب مبهم ملتبس، في كل الاتجاهات التي تهــب فيها الرياح؟ هل كانوا يبحثون عن ملاذ في ذاك البحر الذي تكتنفــه الغياهب الكثيفة المتكدسة، هربًا من جهنم الشرهة الحارقة، السلاح النووي أو الحرب الكيميائية؟

تقدمت بخطــى حثيثة عبــر المشهد الخرب ومصابيــح السيارة التــي كنــت تستقلها تكشف الأشبــاح والظلال البائســة التي حجبت عنها الرؤية، تتحسس طريقها في الظلام، وبأيديهم زجاجات من الشراب الرخيص، بينما تتوهج جذوة الرعب الرابضة في مقلات أعينهم.

إلي أين كانوا ذاهبين، وممن كانوا يهربون؟

هــل تحققت تهديدات الأجساد الرخوة، هــذه الأجساد المائعة، المدن بأطلالهــا، الأعضاء المبتورة لعــدد لا يحصى من الضحايا

المتبعثـرة في بحور من الدمـاء؟ أم أن المسألـة تتعلق بحشود من الممسوسين الذين لاذوا بالفرار خوفًا من العقاب الوشيك؟ قالت له كأنهـا تقرأ أفكاره: إن هؤلاء يجولـون الأرض ليمحوا مثلهم العليا الميتة وعقائدهم المتعفنة.

كانـت السيارة قديمة من طـراز (DKW) يعـود تاريخها إلى طفولتـك، ربما تكون لادا متهالكة وقذرة، تتحرك فيما يبدو بحذر ومن تلقاء ذاتها كيفما اتفق.

مجموعـات مـن العصابات الثملـة، أفرادها غزيـرو الشعر، ينبثقـون مـن الظـلام، فيصبون علـى كـم اللعنات بلغـة بدائية، تعبيراتها غامضة، ينطقـون بالأفعال في صيغة المصدر من دون تصريفهـا. بعضهـم كان يجري مثل الأرانـب البرية المذعورة، كأنهـا تفاجأت خـلال جولتها الليليـة، أو مثل الهـوام التي تقترب من اللهب فتحـرق. عملت عندئذ علـى أن تتجنبهم، فكانت ترسم خطوطًـا علـى الإسفلت الذي بدت فيه حفائـر غائرة مثل علامات الجديري، بسرعة شديدة مصحوبة بترقب.

انزلقـت السيارة في طريقهـا بجدارة. على الرغـم من قدمها ومحركها المتهالك، كانـت قادرة بأعجوبة على تلافي مجموعات من الأشخاص الهائمين المحملين بكومات، وسلالاتهم المنسوخة متراكبة مثل عناقيد العنب الهلوع.

تريـن هجرات متتابعة، وجثثًا أخرجـت من أجداثها بكل حقد، وتماثيـل ضخمة انتزعت مـن قواعدها وتم تحطيمهـا بمطرقات، وكتبًـا عقائدية وسياسية أساسية ألقيت فـي النار، وحرق العظام، وشـوارع وميادين تنزع عنهـا أسماؤها، وأجسـاداً مكبلة تتحول لرمـاد، ومنازل متهدمـة باسم سجـل العار المشيـن، وشخوصاً هامـدة، ذابلـة، تالفـة، فوضـى، وفرقة مـن الممثليـن الجائلين المحتاليـن. وقطعاناً ترعاها الذئاب بدلاً من الرعاة، لا مكان لذرة من الحقيقة، لا يوجد سوى كومات من التراب، أو جبال هشة.

هـل اقتربا بعد ذلـك من رؤيـة الأسطح الحلزونيـة؟ سماوات فلكية، دوائر الزهرة الصوفية، العوالم القمرية المنشقة من الفضيلة العارفة التي تضيء وتلهب الشمس الحقيقية؟ أم أن الأمر مثلما قرأ قبل العبور، محض خيالات و أكاذيب؟

لا تفقد صبرك، لا تكن عجولاً. على الرغم من أنني سبقّتك إلى الخبرة والإدراك من دون حواسـ، فلم أر شيئًا بعيني رأسي ولا حتـى في برامـج الحلقـات التليفزيونية. هـؤلاء البشر يكتشفون- مثلمـا أعلن مواطـن لك قبل أن يجـيء إلى هنا بكثيـر- أنها ليست هذه النمـاذج الرافضة للمجتمـع، عديمة الأخـلاق، الإجرامية، الهائمـة، حثالة المجتمع الهمجيـة، مثلما كانـت تصورهم أجهزة الدعايـة الخاصـة بالأنظمـة الحاكمة، بـل هم مريـدون آخرون

لمعلمين «يمدون الرياح بنظريات خادعة، يرمون الأحجار على أنهـا خبز، والأوراق على أنها فاكهة، وبدلاً من الطعام الحقيقي، يطرحـون أديمًـا قاسيًا مختلطًـا بالعسل المسمـم». يحرقون الآن بغضـب الأصنام التي عبدوها، ويلعنـون التضحية التي بذلوها بلا طائل لأجيال طويلة متعاقبة.

غالبـك النوم بينما تقود السيـارة، ورأيت متجـرًا هائلاً مكتظًا باللوحـات، والصـور والتماثيـل وأنصـاف التماثيـل، : «للدليل المرشـد» و«المنقذ» و«أبـي الأرض»، هيئة صلبـة، ذات رأس ضخـم، وفي أشكال متعددة بكامل الأبهـة والهندام الذي استوحاه قانون يدلـل على غبائهم المفـرط كثمن قامـوا ببذله، على صهوة جواد مرتديًا ازي جندي الدرك، وبحوذته سيف لامع.

يشير إلى مستقبـل مشرق، وتنطبع على محياه دلائل الصرامة والنفاذ الجديرة بشرطي ينظم سير المرور. يرتدي بذلته الرسمية تعلو رأسه قبعة طويلة، فيوحي سمته بهيئة الساحر أو المخادع.

يرتدي بذلة «اسموكينج»، صديري مُنَشًى، وياقة قميص على هيئة جناحي طائر، مثل معلم رقص يدهن شعره بالفازلين. تزين وجهه عيناه الزرقـاوان المتأملتان، وحاجبـاه الكثيفان مثل خبير التنويم المغناطيسي.

•

يبدو مثل أينشتين في معمله للبحوث العلمية، بينما يداعب فتاة مراهقة، بريئة، شقراء، باسمة، مفعمة ببهجة سماوية.

منكبًا على خريطة لميدان المعركة، يشير بإصبعه المسحور إلى نقطة ضعف قوات العدو! آلاف اللوحات المنزوعة من المكاتب والإدارات المركزية الرسمية، عدد لا نهائي من التماثيل التي أطيح بها من المتنزهات والشوارع، تماثيل نصفية، العديد من التماثيل النصفية التي أجبرت بالقوة على البقاء هامدة بلا حراك. رؤوس عظيمة كسا جفونها وأنوفها التراب، واصطفت تشغل آلاف الهكتارات في متاجر ضخمة، ومستودعات مهدمة. أنهكك كل ذلك مع التأثير المتضاعف اللانهائي لنظراتهم المتوهجة وأوضاعهم الشاذة.

تجول وسط الغابة بعض الأشباح المعروفة ما بين قواعد التماثيل الحجرية ومنصاتها، تبدو هذه مقوسة الظهر ترزح تحت وطأة المديح المتملق المداهن، ودفاعها عن حقيقة دامغة ذات أهمية كبيرة لمثل تجشؤ ذلك الفلاح الفظ الخشن الذي تصوره التماثيل. تبث مكبرات الصوت في هذا المستودع المشئوم، دون هوادة، قصائد الشعر والمديح لـ «دون خوسيه»، و«ماوريثيو»، و«لادولوروسا»، و«فيذيليو»، وفي الوقت نفسه تتظاهر تلك الأشباح، من دون طائل بالفرار منهم برفرفات متخبطة وتكتسى وجوهها بملامح الإعياء.

(أتحلم؟ أما زلت تحلم؟)

فلول من الحشرات المحتشدة، تصدر جلبة متواصلة، تمزق، تحـرق، تهدم، تحطـم، تفتت رمـوز العبقرية لـذرات، تحرق وثائق الهوية وبطاقات الأحزاب.

السيارة الـ لادا (أم أنها سيارة DKW العتيقة؟)

تتفادى من خلال حركات ملتوية مجموعة من السائرين نيامًا، فتبـدو كأنها ترتفع فوق الطريق السريع الذي تظهر وتختفي خلال عبوره، في الوقت نفسه تُمحى من فوق الأرض كأن الأمر محض سراب.

قالت له: لا تخف. لم نتحرك بعد. حتى اللحظة لم تعتد الوضع. هـذا ما جرى لـي في البدايـة، لكن بعد تعـود العيش فـي الظلام والوحـدة، خلت أنني ضائعة، وفجأة صـرت قوية وهادئة، على الرغم من أنه لم يكن لديّ أيّ أمل في هذه البهجة.

(أنتما في هذه البرجولة أو هذا الممر الريفي المعروش الملاحق للسحاب، بينما تكرر هي وبشكل آلي إشعال سيجارة لا وجود لها، تشعـر بهذه المفارقة التاريخيـة، وتبتسم لك فيما تلوح على وجهها نظرة مرحة خفيفة للتواطؤ الذي جمعكما).

انظر! انظر هذه الموشورات الزجاجية.

ستقدر من خلالها على ملاحظة نعش ضيق قوامه اللهب، قافلة مـن النساء والرجـال العرايا جميعهم، خيطـت أجفانهم بأسلاك، شجـرة مقلوبـة رأسًا على عقب، جذورها ضاربـة في السماء فيما تتدلى فروعها صـوب الأرض، حية طويلة يوازي طولها مسيرة شهر.

سيدة تحمل مظلة، ترتدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشّـى بالدانتيلا والشرائـط الكبيرة، تتحلى بعقـود من الخرز، ميداليـات وأحجار كريمة، جوارب بيضـاء، حذاء ذو كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة، كانت تتجـول ما بيـن الدرابزين المكسـو بالطحالـب، وأصص زهور الأرطنسية.

(من هي؟ ألم ترها قبلاً في مكان ما؟)

على حين غفلة، تدرك أنك فقدت التواصل مع من يختبرونك.

هذا الكشف ينبهك، إلا أنها تعمل على تهدئتك في اللحظة المناسبة بنظرتها المائية الرائقة.

الزمـن لا يجري هنا مثلمـا كان يجري فـي الماضي؛ لذلك لن تلحـظ مـرور الساعات أو مـا يشابه. فهناك يتحدثـون عن الأيام والأشهر والسنين، بينما اللحظـة هنا قد تخلد بيننا خلال المساءلة.

الأمر لن يعدو قيامهم بتشغيل الفيديو فيعيدوا للحياة فصولاً ومشاهد من ماضيك.

تختلط رؤية الجسر الجوي البراق الخيالي بمشاهد الجلبة، الرعب، وصخب الضوضاء، والأصوات الحادة، وبتساقط مستمر و بطيء لرذاذ مطر ذراته من النيران الملتهبة.

(هل كنت تحيا بينما تحتضر في ليلة الوحدة؟)

-4-

مثل شيطان أعرج وقف ثابتًا عند المنحدر الرأسي للجبل، الذي سيصبح وفقًا للأحاديث، واحدًا من حدائق الجنة، أو سيتسلق مئذنة من المآذن الملاصقة لضريح السيدة التي احترقت بالحب الصافي، تراقب المدى الشاسع الممتد، يضم القباب، المقابر، البيوت، الأركان، الزوايا، المدارس التي جلت بها منذ سنوات مضت، لتآلفها تسرقك رغبة فطرية جامحة لعشقك التجوال. غمرِ المشهد الآن ضوء القمر، فبدت عليه مسحات الجلال، والسلام والهدوء، بينما القاطنون وسط المدافن في غمار سكون مطلق متشبع بالسكون والبركة. تُرى هل تمثل جزءًا من باقة الأشباح المارقة، كالثريات المستسلمة للذكرى والحنين خلال فترة الأربعينية؟ هل تقرر السفر وتحلق معها من الجامع وشرفات القلعة صوب أديرة الدراويش بالمقطم؟

تفتتين الهواء الصحو المنعش مثل الشهاب أو الطائر، مندهشة بالخفة والرشاقة اللتين تختصين بهما، ترتفعين فوق أفنية مكسوة بالبلاطات الموشاة بالآيات، مقابر شيدت عليها الشواهد، أروقة حزينة بالقيشاني والنقوشات الكوفية. أهي غريزة رقيقة، أم هو الوجود السري لعضو مُنح ملكات التوجيه والتوازن، إلا أنه يسبب لك شعورًا عنيفًا بعدم التوازن، وثمالة منتشية لفرط السرور؟

الطيـران بالقرب مـن المقابر المغطـاة بسعف النخيـل، وأطباق الحبـوب وأوان فخارية تحوي ماءً، يهبك في الوقت ذاته السكون المتوجسـ لشخص يتزهد في فضاء مقدسـ خصص للخلوة الذاتية والحـزن، و وعلـى الرغم مـن ذلك، فإنه مشبـع برحمة غامضة وراسخة.

إنك وحيدة، تسيرين من دون صحبته في جولتك الليلية بالمدينة الصحراويـة. تجـاوزت في مراحـل متتابعة الجفـاف الروحي، الظلمات، الكـرب، المتناقضات، الكرب الدائـم، القلق الداخلي والخـراب المناوئ، كل هـذه المراحل التي حدثـك عنها «الدليل الروحـي». هل أصبحت إيمانًا خالصًـا بلا صورة، بلا شكل، بلا هيئـة، غارقة في عدمك، عائـدة إلى نواتك؟ تـرى لماذا هجرك المحققـان في سرداب حجـري من الجرانيت مسقـوف بقبة، من دون أن يكلفـا نفسيهما مشقة تثبيت حجـر الشاهد الذي يغطي السلم الضيـق شديد الانحـدار؟ هل كان ذلك سهوًا منهمـا، أم فعلاه عن عمـد لا ختبـارك؟ أم ترين أنهما أرادا منحك هدنـة لإقامة الأمور وبعث الذكرى؟

كيـف يتسنى لـك الحديث على بعـد ألفي كيلومتـر، مع مجمع الأشبـاح من طفولتك وعائلتك؟ أم تنتزع عنها الحياة وتتحلل بغتة فـي العدم، أب مفقود استعاد نفسه تدريجيًا في مكانه المتواضع في

المدينـة، جدود أشرت إليهـم، وقد سلطت عليهـم حزمة ضوئية كاشفـة. قاسية، قبل يـوم البعث المشهـود، مرتبطين في مخيلتك دائمًا ووعيك بمشاهد كنائس تزينها أرباب حجرية، وتماثيل وهمية تكسوها الجروح، عـذراوات يدمين، طقوس باطلة، احتفالات تعميد عقيمة، أحاسيس ميتة. هل ستعود في هذه الآونة لتقلق رفاتهم وتحـرك عظامهم، وتعرض لأطياف لوحـة خربة تصور البؤس الإنساني حقد الأشقاء بعضهم لبعض، تلك الثمرة المريرة للبذرة التـي زرعت في الطفولة؟ أهي ذكريـات خائنة للسلام، والحب، وهناء الأمومة، وجميعها كانت تحاصر قرينك أو من صار قرينك عشيـة اليوم الذي هاجـرت فيه روحه؟ ألم تكفـر عن كل ذلك في مقهى صغير بـ «الكاثابا»، ثمنًا زهيدًا دفعتـه مقابل قطعة صغيرة من معجـن؟ وبالرغم من ذلك، تظهر الذكريـات مجددًا، وتبذل قصـارى جهدها لتحقق ظهورها، مثل الصـورة الباهتة في لوحها المعدنـي الرقيق أو لفيلم خلال عمليـة التحميض، ممحوةً بلا شكل في البداية، ثم واضحـةً وجليّةً بعد ذلك ما بين كتلة الأشباح عديمة الشكل، بعد طريق طويل من الجسور المنزلقة والشاقة، والعقبات الضخمة ومنحدرات. وتطوق منـازل التكفير المتوهجة الضاربة للـون الأحمر؛ هي في عنفـوان شبابها، التقطـت لها بحب صورة جانبيـة، أو أخرى بملعب التنس وقد أمسكت بمضربها، وهو مثلما

تتذكره فــي الأوقات الأخيرة، تبدو عليه علامـات السن، حزينا لترملــه، ومرضه وتدهور مشروعاتــه العلمية التي أجهضت على نحو مؤلم.

ألــم يعانيا أحزانًا لا توصف لــدى خروجهما من مينائهما الآمن و إطلالتهمــا الخاطفة علــى بحر العالم، في إجابــة لندائك؟ أهناك عتــاب أبكم في عينيهمــا، أم شكر مفهوم ضمنًــا لرغبتك في حوار أصبح مستحيلاً، بينما يتلاشيان في الضباب عائدين إلى مخدعيهما المتوازييــن في مدفــن العائلة القديــم؟ وها قد حضــرت الجدة في شرودها المحبــب (أترى هل فقدت عقلها بسبب الجذب الروحاني مثلما أشار «ابن عربي»، وهــي شخصية تزن الأمور، لكن بغير عقل، أما زوجها «متقوقع دائمًــا يقرأ جريدة بتاريخ يعود لحصار ستالينجراد» بالرغم من ذلك فإنهما ينضمان إلى الموكب من دون أن يقومــا بتوبيخــك على نبشــ قبريهما، وعرضــ عظامهما على الملأ، وهو ما كان يجب أن يمكث في طي النسيان إلى يوم الرحمة النهائي. تظهر أشباحهم في ليل مدينة الأموات الصافي؛ الأضرحة التذكارية المزينة بالآيات، الشواهــد المكللة بالعمامات الحجرية، القباب المتقنــة، مقامات الدراويشــ، أبراج الحمــام التي تقطنها اليمامــات البيضاء، ضريح (سلطان العاشقيــن) مع المرسي الذي يتلو آيات الكتــاب. تحلق مجردًا في السمــوات الساكنة، تهدهدك

رياح تبدو كأنهـا تحيي بريق النجوم المتوهج، على أرض منزل حقير، بيوت مأهولة، طريق صحراوية ضيقة، أطياف تهيم ليلاً، تنفس ثقيل، واستشعار حياة مليون ساكن لبثوا في مساكنهم شياطين أشقياء مطلوقين، مقابر الشيـوخ، بيوت حديثة الطلاء برسومات الحج إلى مكة، مآذن مرفوعة مثل حراس يحمون النائمين.

(ابتعـدتْ عنـك، ومـن دون إرشادهـا القيم، تشعريـن فجأة بالجفاف وبأنك دون حماية).

وهنـاك بعض النوبيين يرتـدون جلابيبهم البيضـاء، وقد لفوا عمائمهـم بإحـكام على رؤوسهـم بمهارة، ينصبـون بحذر وهمة فـي أحـد الشوارع سرادقًـا سيستقبـل أقارب أحـد الموتى، وبعد ساعات يودعون أربعين يومًا من الحداد، ما بين الزفرات الرهيفة ورشفات الشاي المتباعدة.

بعكس ما هــو مألوف في الأساطير، لم يكونـا شبحين أسودين لهما منظر منفر مشئوم، أو هيئة مشوهة، وصوت هادر كالرعد، وعيون تلمع في ظلمات المدافن مثل البرق المبهر.

المطرقــة! ألم يضربا بهذه المطرقة الثقيلة التي يعجز عن رفعها البشر كافة؟

إذا كانت موجودة بالفعل، فلم لم يبصرها أحد في أي مكان؟!

ألم يعـان من ضربات هذه المطرقة علــى أم رأسه سبع مرات متتاليات، حين لا تكون الإجابات مرضية؟

جرت الأمور على نحو مختلف تمامًا عما تخيلاه!

ربما لــم يضيقا عليها بالأسئلة التي تخرســ لسانها، وهي مكبلة بمشاعر الذنب والهلع؟

لا، لا، هذا المشهد لا يشبه - ولو من بعيد - سجون محاكم التفتيش. فلــم يكن هناك أدوات وطـرق للتعذيب مثل الحبــال أو الإغراق في الميـاه، أو الصعق بالكهرباء، أو مغطســ أو أدوات للوخز، لم يكن هنــاك سوى فضاء ضيق وكئيب، أصبح شاسعًا وبلا نهاية، وتذبذبت الكلمات فيه مثل صفير حاد، يستحيل تحديد مصدره.

كانت تراهما؟

على الأرجح لمحتهما وسط الضباب، وبعد كل اعتراف، كانت تستشعر صفاءً وهدوءًا، بعد أن شفيت من إغمائها وهمومها وقلقها.

صوت نكير كان يتردد، حادًا وصافيًا في آن واحد، بما لا يدع مجالاً لأي شيء على الرغم من رداءة مكبرات الصوت. بينما جاء صوت منكر تشوبه نبرة لاهية، كأنه مشبع بسخرية أو بمعرفة دقيقة للصغائر الإنسانية. لم يحضرا ليقرآ عليها صحيفتها أو ليخضعاها لاختبار ما.

كانا متابعين لأقوالها وأفعالها، مطلعين على كل شيء من الألف إلي الياء. حتى إنهما شقا على نفسيهما بقراءة أكوام وأكوام من النصوص وأطروحات الدكتوراه صاغها باحثون، بعضها نافذ الفكرة، والبعض الآخر شديد الجهل، ولم يغفلا قراءة النصوص السقيمة لأعدائها. ضحك منكر وقال: يا لها من أكوام لعينة. كيف لنا بعد ذلك أن نتهمها بمعتقدات خاطئة، مارقة، بغيضة، فاضحة، ذات وقع سيئ؟ وسط رتابة الأوقات البائسة الموحدة الغثة الخاوية من أي محتوى، أصبحت حياتها نصًا مكتوبًا، لكن لديها ميزة ما، ألا هي العاطفة الآثمة، والقدرة المادية على التخيل وأيضًا على الحماقة.

أكان هذا هو كل شيء؟

ماذا بالإمكان أن يقال الآن!

فحينما أنصتت إليهما، شعرت أن أحدهما، بل ربما الاثنين، كان يمدها بنيران ناعمة مصدرها شمعة، لهيب يمنحها منتهى اللذة، تتراقص ألسنته في كل مكان فتحول الانعزال والصمت اللذين أعقبا مرحلة المرور إلى عذوبة خالصة. وماذا بعد؟

استيقظت، نظرت إلى مشهد الفراغ الشاسع، بدا المشهد كأن من يعرض الفيلم قد أوقفه برغبته الشخصية، أو بناءً على أمر من رئيسه. حينها ظهر «ابن عربي»، وعرفته على الفور لحسنه الفريد الذي يشع منه، حاملاً مخطوطه وعنوانه « رسالة في شجرة الإنسان والطيور الأربعة ». دعاها لكي تتبعه، رآها عاريةً، على أهبة الاستعداد، خفيفةً ونشيطةً.

خلدتْ إلى النوم مجدداً، وسمعها تهمس في أحلامها:

شربت ميراث الكمال الناصع.

(امتد بصره عبر الميدان، فضاء الميدان... نُطفي ومحدد، انغمس في تأمل جلبته وحركة الجماهير، تشكيلات الجماعات التي تتكون وتنحل في ذاك المحيط مثل كيانات شاردة متفككة. ترى ما عدد الأيام والأشهر و السنين التي بقي فيها منغلقًا على ذاته في هذا التأمل، يجيب عن تساؤلات أصدقائه بلا مبالاة، غارقًا في سكون ونشوة مبعثهما صمته الداخلي؟

«هذا، هـو ما كان»، قالت وهـي تنشطر عـن جسدها الساكن علـى عرض السلـم، تنهض بسعادة مشوبـة بالرضا لتوقف الألم القصيـر بضلعها الأيسر، الأزمة القلبيـة التي أودت بحياة شقيقها، واعتبـر الحدث العقاب الأزلي لعائلتهـا، انفصلت عن نفسها، عن مظهرهـا الشبابي، مرتديـةً ملابسها الرياضيـة، اعتمدت بإحدى يديهـا على درابزين السلـم، كأنها تبحث عن دعـم كيلا تسقط في لحظـة العبور، وقد تكيفت مع خفتهـا، مالكةً غير مرئية لمجموعة مـن الكتب خـلال عدة ساعـات، وللأثاث والذكريـات والصور التـي اشتملت على أرقام في حياتها، مالكـة لعديد من كتب الأدب الإسبانـي كانت بصدد ترجمتها، حتـى إن الآلة الكاتبة ما زال بها ورقة عن الشاعرة «سور خوانا أنس دي لا كروث».

تسببـت وفـاة أخي فـي شعوري بالوحـدة والعزلة، لـم أنجح في اعتياد الوضـع، كنت ألوم نفسي بقســوة لعجزي عن الحيلولة دون وفاتـه، لكنني لم أنجح في التكهن بذلـك من خلال ذلة لسان أو بعضـ البوادر البسيطة الدالة على المرض إلى أن فارقني على هـذا النحو المباغت فسقطت في بئر حالكـة الظلام، وتحطم كياني الداخلي لجهلـي المطبق عن ذاك الكشف، مـن دون أن ألمحه أو ألحظه وكانت قد انتهت ليلة الكرب الضيق.

لم يخالجني مثل هذا الشعور في أي من مراحل الانكسار والجفاء والانعزال عن العالم، الهروب من تبدد الروح، حتى ما بين أسوار مستشفى الأمراض العقلية، لم أشعر قط بهذا الشعور: عارية، مرفوضة، محطمة، من دون سند وبعد إخفاقاتي العاطفية، بعيدًا عن ذاك الضوء البسيط الذي اعتدت رؤيته في عينيك، والرغبة الملحة في الشراب، والوصول إلى لحظة الإشراق سعيًا نحو نشوة الثمالة المبتغاة، وصلت بعد ذلك إلى شقتك، وأنا ثملة بعض الشيء. لم أدرك في ذاك الحين أن نشوة النبيذ كانت تعلن عن بحثي العشوائي عن حالة النشوة الصافية. واكتشفت الأمر بفضلك أنت، من خلال الصوفيين وعالمهم الروحي. عجزت عن الإقلاع عن التدخين، عن ملء مطفآت السجائر في منزلك وتعبئة حجرتك بالدخان، كنت على دراية أنك تقدم لي الشراب بينما تشعر بحزن، خائفًا، ولديك الحق، في أن يغيب عقلي، وأن أنفصل عن الحياة وجوانبها الاجتماعية.

كنت أجهل أن أخي قد سبقني ببساطة إلى الخفة. غرقت في الألم، شعرت بدوران الهاوية. قلت لك: لا أستطيع مواصلة عملي معك. ابحث عن شخص آخر أكثر ملاءمة واتزانًا. ذاك المساء، حينما شعرت بمساعدتك، رأيتك في منامي تمد لي شمعة، تسطع في جميع الأرجاء، نارًا ناعمة، أتلقاها منك بسعادة، كأنها طعام محلي قوي المذاق.

خـلال الحوار الذي تبادلنـاه، شق عليّ التمييـز بين من يسأل ومن يجيـب، من صوت «يقـول»، ومن صوت «أقـول»، مَنْ يتحـدث بصيغة «هو» ومَـنْ يتحدث بصيغة «هـى». التفريق بين الجنسيـن، ألا تلغي تلك الفروق في إطار هذه الخفة؟ وماذا سنفعل بقواعد النحو؟ لماذا نلجأ إلى ضمير «هو»، وليس «هي»؟

جعلـت تضحك وتضحك من جديد، بينمـا تلهو بالسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصـورة، تطالعك من مشارف السحاب، على مـرأى من الأشباح التي تنتظر بالمثل نهايـة الأربعينية، مطمئنين تملؤهم الثقة في العفو والرجاء.

-7-

قالت:

أترى جيـدًا؟. إذا كانت الرؤية مشوشـة أو مضطربة بإمكانك ضبطها عن بعد بواسطة الجهاز المبرمج.

في عتمة المقبرة في أعقاب صعودك إلى درجات سلم العري، متجهًا صـوب السلام الميمون، بمنأى عـن خير الزمان والمكان والزمـن، ومن دون أن تلتفت إلى مـا تفعله، من دون أن تدرك هـل أنت مقيد أم لا، أقادر على الحركة والفعل أم لا، من دون أن تلتفت أو تهتم لتعليمات كتاب «الدليل» فيما يتعلق بمواد الإحساس، تستقبـل بسلبية تدفـق الصور القاسية على الشاشـة، ساكنًا في حال تجمع ما بين الهدوء والصمت.

تتأمل المشاهد واحدًا تلو الآخر بالترتيب.

تنظـر إلى رجال ونساء تقطعت شفاههـم عند جوانبها، أصيبت عيونهـم وآذانهم بسهام حادة، علقوا مـن أرجلهم في اتجاه عكسي وتدلت رؤوسهم نحو الأرض، ولدغتهم الأفاعي في كل مكان.

تنظر إلى الجلاد، رجل يرفع بين يديه صخرةً ضخمةً يسحق بها جمجمـة شخص بائس، ومن دون أن يمهله دقيقة واحدة ليرتاح،

يباغـت رأسه بالضرب مرة أخرى بعد أن تتشكل بمعجزة مجددًا، مواصلاً تعذيبه الفظ الصارم.

أمواج نهـر الدماء تغلي ويسبح بها منبـوذاً محروماً من رحمة الله، يجاهد؛ كـي يصل إلى ضفة النهر، حيـث يقف جلاده يقذف بجمـرات ملتهبة في فمه وهـو متقطع الأنفاس، ويأمره بمعاودة السباحة في هذا التيار لمواصلة العذاب.

موقـد أنبوبي الشـكل، يتأجج في نيرانه رجـال ونساء عرايا، يصعدون ويهبطون وسط برادة المعادن المشتعلة، وفجأة يهبطون للقاع، وهكذا دواليك، وسط الصراخ والأنين وصيحات الرعب.

مخلوقـات متورمة، متشنجـة، يتقيؤون مـن دون توقف من عيونهـم وأنوفهم وأفواههم وآذانهم، ألسنة اللهب الملتوية تخترقهم من الدبر.

محيـط هائل مشتعلـة نيرانه، ينقسـم إلى سبعين بحـرًا، على شاطئ كل منها ترتفع مدينة متوهجة، ضارب لونها إلى البنفسجي، مؤلفـة من سبعين ألف بيت، تضم بدورها سبعين ألف نعش تشتعل بها النيران، يختلط فيها رجال ونساء يتضرعون طلبًا للرحمة فيما تلدغهم الثعابين والعقارب.

أترى هـي صور للوحـات «بوسكـو» أم أنها نسـخ ملونة من

أعمال «دوري»، كنت تتأملها مرتعبًا وأنت محض طفل صغير؟ ألم يستلهم الفنان الفلورنسي، بجرأة، رؤى داخلية مستوحاةً من «كتاب المعراج» في أثناء تأليفه كتاب «الكوميديا الإلهية»؟

قالت: إذا كان الموضوع يضجرك أو يشعرك بالخوف فبإمكانك تغيير القناة.

إلا أن البرنامج كلما انتهى يعاد من جديد، ولا تستطيع معرفة السبب أهو أمر محتوم بسبب عيب تقني؟ فكلما انتهى العرض يبدأ مرة ثانية، فتظهر على الشاشة خلال تحرك الظل الناعم، صور المعذبين طالبين المغفرة، بشفاههم المبتورة ومقلاة أعينهم وقد اخترقتها الأسهم، معلقين من رقابهم، لدغتهم الثعابين في كل مكان.

قالت المرأة حاملة المظلة بالفرنسية:

Oh, Comme ils sont emmerdants! Ils ne peuvent pas s'offrir comme tout le monde une antenne parabolique?[1]

يبدو كأنها اختفت، من دون أن تحاول إشعال سيجارتها المتخيلة، أو حتى تستحثك وتمنحك بصيص ضوء عينيها الملونة

(1) يا لهم من «مقززين» إنهم لا يستطيعون أن يمنحوا أنفسهم كالجميع طبقًا هوائيًا. (المترجمة)

كملجأ وملاذ. انطباعات ما بين العتمة والصفاء، التخمة والرقة، تسبق جميعها اقتحام صور جديدة لحراس غلاظ، نظرات تطلق ألسنة لهب، مدن تلتهمها نيران داخلية، بيوت للتطهر والألم، شكلت المشهد رغبة جامحة تهذي في هيئتها المتماثلة.

هوة في شكل خادع أو جزع شجرة صنوبر مقلوبة تنحدر صوب مركز الأرض؛ من خلال تسعة مستويات أو طوابق دائرية مثل العقاب والسجن وفقًا لدرجات الأرواح المنحرفة الخبيثة، قيود نارية ملتحمة بتكتلات الضحايا، أفاعٍ تتسلل إلى الأفواه، وتخرج من فتحات الشرج بعد تدمير الأمعاء، مخلوقات بلا عيون تسبح في أنهار الكبريت، رجال بطونهم مكتظة بالزواحف، ونساء معلقات من شعورهن أو أثدائهن في عقافات ملتهبة كالجمر.

دواب متوحشة لها رؤوس كلاب وأجساد خنازير، يعانون من عطس رهيب، فرض عليهم احتساء أكواب من المعدن المنصهر، ألسنة قطعت بمقصات متوهجة، تخترقهم سهام وتضربهم أسواط من نار، أرواح تعتصر وتدمر من قبل ملاك متمرد يصيح من الألم فوق مرقده على مشواة.

وفجأة وبالتعليق باللغة الإنجليزية تظهر، صورة فتاة شقراء ذات ابتسامة ساحرة وصدر مثير وبشرة لامعة كالصدف، تشطف شعرها الغزير تحت ماء الدوش، تبدو عليها سعادة نرجسية غامرة

تـكاد تصل بها إلى ذروة النشوة الجنسيـة، وذلك بفضل الخواص التجميلية التي يوفرها الشامبو، ذو العلامة التجارية العالمية، الذي تستخدمه.

هل قطعوا البرنامج التليفزيوني بهذا الإعلان الدعائي؟

وبينمـا تتساءل، مرتبـكًا، عمـا إذا كانت العلامـات التجارية العالميـة توجد في مقـرك الجديد، تهيأ لك كأنـك تسمع في الظلمة الحالكة ضحكة منكر الساخرة.

كان فـي مركزهـا، المنـزل والمتعة فـي أحشاء عالـم تنبض فيـه الحياة، يستدعي فـي الوقت نفسه أصواتًـا وروائح وملامح، وعلاقات؛ مـذاق الكبيبة وأوعية حساء الحريـرة، مستوعبًا تمامًا توحد أجزاء جسده وتنوعها، لمساواته الأساسية مع كتلة الأجساد، وأساس هدفه: الانجذاب، الرحمة والرغبة. مجتمع المصير الذي تتولاه في عري الميلاد ولحظة العبور، والعناقيد البشرية بجمالها الأخاذ، والبريق الذي يختفي بغتة.

أكانـت الشيخوخـة أم الإرهـاق هـو ما أبعـده شيئًـا فشيئًا عن منطقـة الأرض المستنفرة، أم ترى أنـه الإيحاء الحزين باستنفاده حيويتـه الأصيلة الصافية في الكتابة؟ الحـق أنه غادر في الحلقات الدائرية ذاتها، ترك بدويتـه الغريزية؛ لكي يقف عند زاوية قرب أحـد المقاهي ليترصد المشهد من هناك. هـل أراد أن يضع مسافة بينـه وبين الآخريـن؟ أم يفرض مسافة تباعد ما بيـن ذاته ونفسه؟ أم أنـه اليقين المفاجئ بعدم ثباته، أيضًـا الوهن الشديد لما يشعر به كأنه شيء قريب، في حين أنـه بعيد وصعب المنال؟ أصبح مجرد شخص يتأمل ما حوله من إعصار الجماهير السائرة، المتدفق بين البائعيـن الجائلين، النصبـات المظللة، المطابـخ المتنقلة، البسط البلاستيكية وعليها البضائع الكثيرة المتنوعة. هل هذه الأجواء التي ألهمتـه شعلتها المضيئـة قبلاً قدر لها أيضًا الاختفـاء والزوال؟ هل

سيمحي مسرح الأضواء والظلال والكوميديا الخصب الذي طالما غذى روحـه وحياته وروحه الإبداعية الشرهـة؟ هل سيمحي كل ذلك بلا رحمة؟

تقدم خطوة أخرى، عرج إلى منزله المجاور للميدان، بناظريه مـن شرفة سطح المنزل، ألقى نظـرة فاحصة يتأمل الكتلة البشرية الملتصقة، فما زالت الحياة تنبض، ولم يحل الإفناء والفناء.

يصـوب منظـاره الموشور على رأس الصـاروخ الأملس، وعلـى الدائرة المتحلقة حول «الشرقـاوي» وحمائمه المستأنسة. ظلال كثيرة تمدها سحب هائمـة، تدفعها نسمات رقيقة نحو ظلال أواخر الجوالين، أطفال متقافـزون، أطباء ألهموا العلوم الربانية الفطريـة، المقرئـون يتلـون التعزيمـات، البصـارون، الرواة المنشدون، حواة الثعابين والراقصـون المبتسمون. خيط رهيف كان يربـط بعالم الأشبـاح البعيد المهدد من قبـل كتلة مضغوطة، سيحجب صوتها تدريجيًا الأصوات المتداخلة، حتى صوت مؤذني الصلاة المنبعث من الجوامع المحيطة بالميدان.

وفـي السابـع عشر من شهـر يناير، تلفـح بغطاء ليتقـي البرد القارس، الذي تسوقه رياح التـلال الثلجية فلمح في محيط بصره صوب المشهد الخالي الصحراوي. وصول العربات الأولى التي تحمل جثث الموتى.

أتت مـن دون دواب تجرها أو حوذييـن يدفعونها، من «باب الفتح»، «سماريـن»، «رياض الزيتون» و«محمد الخامس» في التوقيـت نفسه، كأن جهـاز تحكم عن بعد يقودهـا، أو قوة خارقة تدفعهـا. بـدأ يعدها بالآحـاد ثم العشـرات، بينما تتقابـل في نقطة الوسط؛ لتفرغ حمولتهـا، أكوامًا ضخمة من الأجساد المخلوعة أو المتيبسـة، أفواهًا نصف مفتوحة كأنها ستصـدر صرختها الأخيرة وعيـون جاحظة من شدة الهلع لم تكلـف نفس رحيمة واحدة نفسها تغسيلهـا ولفهـا في أكفانها، تغمضـ أجفانها، تسـد آذانها وفتحات الأنف بالقطن، وأن تربـط الساقين والفكوك بشريط، وأن تشبك الأذرع في وضع معكوس فوق الصدر بشكل جمالي، ولا جعلتهم ناحيـة اليمين بحسب التعاليم الإلهية. شيئًا فشيئًا تحول فضاء الحلقة ومقايضـات البيـع والشراء بيـن المترددين عليها إلـى جمعية من الجثامين، يتزايد عددهم باطراد دقيق وآلية العمل في سلسلة مصنع ضخـم، مثلما هو الوضع فـي أسطورة التعميد. هـل كان الوضع استدغـاءً لـ«المساء والضباب»، محفـورًا للأبد في صور قصيرة متتابعـة لأجسـاد مكبلـة الأيدى، رصاصـات في أسفـل الرأس، صدور اخترقتهـا الرشاشات، ضربات بالسنـج باغتت الظهور، وجـوه شلـت حركتها الغـازات السامـة وقنابل خفضـ الضغط، فحفرت على تلك الوجوه علامات الألم التي يصعب وصفها.

فقط عندئذ تنبه إلى موجات الفيضان الأولى، وهي تتحرك في سكون.

شلال من الدماء، كأنه فاض عن مستنقع أو سد، جعل يتقدم في بطء من الشوارع القريبة من بنك «المغرب» ومبنى البريد، كسا الأرض باللون الأحمر، فيما تكومت أهرامات الأجساد لتدفق سيارات الموتى. تذكر حينئذ: «من يقدر ولو بكلمات فضفاضة الحديث عن هذا الكم من الدماء والجراح، وإن حاول بشتى أشكال الحديث؟».

فاضت مياه الشلال، فغمرت موقف السيارات وشرفة «الجلاسيني» ليصل أعلى فأعلى. أترى من أي شرايين وأوردة ضخمة تفيض هذه الدماء؟ أهم المعوزون من «بن سودة»؟ أم متظاهرون في شوارع وهران اخترقت أجسادهم رصاصات البنادق؟ أم هؤلاء المساكين المحتقرون المهانون في أحياء القاهرة الشعبية؟، أم شُهداء صبرا وشاتيلا؟، أم تلك الأمهات اللائي فاجأهن القصف في بيروت بينما يتبضعن؟ أم الأطفال قاذفو الحجارة في كفر مالك؟ أم هؤلاء القرويون الذين أبيدوا في حلبجة، أم أطفال متكومون في جحيم «الشطي»؟ أم أنها كانت ببساطة قاع نهري دجلة والفرات، التي تصب بعنف في مدينة «الرجال المقدسون السبعة»، فيما تفيض الحدائق والأسواق والطرق؟ نظر

إلى الكتيبة واكتشف على ساريــة العلم المرفوع في إشارة للصلاة قميصًا يتموج ويتأجــج، مشرب بالدماء. أترى أي ملاك غاضب أم رسول للموت وضع هذا العلم هناك؟ من مكانه في برج المراقبة أدرك دون الحاجــة إلــى منظــار معظــم مقدرة الــذروة الخطرة للفيضان، بينما فاضــت مياهه على البازارات المجاورة. لتجرف معها البضائــع والأشياء. فهل غمرت الميــاة فندق «دي فرانس» عــن آخره؟ هل انحرفت ناحية الناصية باتجاه رياض الزيتونة ولا سبيل للحيلولة دون امتدادها؟

سمــع اندفاع المياه الــذي عبر الطريق الضيــق، ورأها تصبغ بالحمــرة مدخل دار سينما «عدن»، كأنهــا قطيع بقر يخور منطلقًا. فــي متاهة الشوارع الضيقة المفضية إلى منزله. هذا الصخب الذي يضاهي مثيلــه للمياه الجامحــة المندفعة عند بوابــات السد، جعلت تصعــد متوعــدة بوحشية مــن بين جــدران المساكن. هــل اختفى فجــأة جميع السكان بالمدينة؟ ألم ينتبه شخصــص غيره لهذا الفيضان الدموي؟ هيأ سمعه انتظارًا للصرخات والبكاء، وهباءً حاول رصد علامةً تدل على الحياة. انفجر الشلال والفسقية الصغيرة! ألم يشك أىّ ساكــن في المنزل في المشهد الــذي رأه؟ أسرعوا جميعا، على عجــل، أمسكوا بالخرق والجــرادل وشكلوا ســدًا ملتحمًا للحيلولة دون صعــود شلال الــدم على السلالم. ألا تــرون أنه على وشك

الدخـول إلـى المكتبة وإغـراق الكتـب؟ حاولوا إنقـاذ المسودات ومخطوطـات هـذا النصـ، النصوصـ الصوفيـة الإسلاميـة، المسيحيـة، العبرية، مجلدات «دانتي»، «ابـن عربي»، «الدليل الروحـي»، «كتاب المعـراج»، لا تسمحوا لـه أن يغطي ويمحي تعبيـرات الذكاء والعاطفة الإنسانية، لا تسمحوا بإلغاء سر الكلمات الأساسية. أكان يهمس لنفسه؟ أم أن نفسًا مخيفة كانت تسمعه؟ لكن أصبـح كل شيء أحمر اللـون، بداية من السمـاء الخمرية بسحبها المتكاثفة الأرجوانية، يهطـل مطرها بغزارة؛ فتتفجر قطراته مثل الفاكهة الناضجة فوق العلامات الخطرة التي خطها بنفسه، أوراق المخطوطـات المتبعثرة مـن عمله الذي لم ينتهِ بعـد، بينما غمرته المياه بالكامل.

أمهله الوقت لحظات قصيرة ليطالـع ديوان شعر بين يديه فقرأ «خفف الـوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هـذه الأجساد». قبل أن يغرق فـي دوامة نحو فيض الدماء، والموتى، وملاك الموت هادم اللذات ومفرق الجماعات.

-9-

أكان هاجسه بتقدم عمره هو ما دفعه لاستعراض صور الأماكن الأجمل التـي عرفها في حياته، يسيطر عليـه القلق والحزن لشيخ خـرف يهوى جمع التـذكارات والتحف، قبـل أن تختفي هذه عن نظره بأمر من بارئه؟ أم لعـل وهن السنوات الواضح في حركاته غيـر المؤهلة وتحسسـه كالأعمى، عندما رأى فـي ذاكرته، حين أدار قناة التليفزيون، المـدن القديمة التي أحبها، قد تغطت بأكوام الخـردة والحفـر السوداء، بينمـا تنبح الـكلاب البوليسية للإعلام بحبور؟ ها هـي عاصمة هارون الرشيد المحببـة العائلية. الأعداء مذعورون مثـل الصراصير لحظة إضاءة نور الحجرة، يدهسون في تشتتهم المجنون رعبًا من غضب المهلك.

قـرر الهروب من هذه الأجواء غير المحتملة، من ملامح اللوم الصامت للكثير من الوجوه المرتعبة، من الشعور بالذنب الذي ظل يعذبـه. بالرغم من كل ذلك، استقـل سيارته الصغيرة وانطلق في أقصـى سرعة في طريقه للجبال المكسوة بالجليد عبر طريق تتخلله أشجار الصبار واللوز المزهرة. هناك القليل من المارة والقرويين الجالسين القرفصـاء، أطفال رعاة مرتعـدة فرائصهم من البرد، كأنهـم خيالات مآتـة، أترى هو الحصي رمى فـي طريق سيارته المتهالكة الصفراء؟ ماذا سيفكرون بشأنه غير أنه هرع إلى موعده بانضباط في سمراء؟ وصل إلى المدينة الصغيرة بأسوارها الوردية

وأوقف سيارته في الموقف الشاغر. وقف العملاق المهندم مرتديًا سترتــه وسروالــه المنقوش الأحمـر، يستقبل بحفـاوة - مثلما هو معتـاد- السائحين لحظة نزولهم مـن الحافلة، ولم يقف بمكانه عند البوابــة المفتوحة بين دعامات السور، وغفلت عربات البائعين في الممر المفضي للبهو، ومتاجر الهدايا التي كانت منتعشة قبل تعرض الفنون اليدوية، والبطاقـات البريدية أصبحت بلا حركة أو فائدة. كتـب البيانات في البطاقة التي أعطاه إياها موظف الاستقبال، ولج إلــى الحدائـق المهجورة المتخثـرة لأشجار الخيـزران والموز، والأشجار الغريبة، وتتابع الأفنية المزينة بنوافير صغيرة.

تجمعـات مائية للسلاحف، ومئات الغـرف الشاغرة، والخدم الكسالــى يتحركـون بمكر مثل الأشباح والمـكان برمته ملك لهم. جماعة من القطط الجائعــة، عيونها مثل عيون إبليس، رافقته إلى باب ملجئه.

وبعد ذلك مرت دقائق وساعات، بينما كان مستلقيًا في راحة في الوحدة غير المألوفة بجـوار البركة، استشعر تحت ضغط لا مثيل له سرعة الزمن الغاضب، غضبه الذي يلتهم الأشياء والمخلوقات: رياح الغروب، الحية الشديدة تهـز جزع شجر الكاراانداي، تهز فروعها، تعقد وتحل مؤامرات السحاب الشريرة. أوراق أشجار المانجوليـو ولحائها تسقط فوق المياه اللامعــة المتموجة، المقاعد الشاغرة، الديكور التافه لعالم أبيد على حين غرة. ملئ رعبًا لدى

رؤية طاوس ذيله بديع، لكنه يهتز غضبًا. وماذا عن الطيران إلى سيمورج، هل أصبح كابوسًا؟

هرب وهرب مجددًا، إلى أماكن جبلية وعرة، بحثًا عن مخابئ وملاذات خفية، مدركًا أنه لا شيء، وغير قادر على فعل شيء، ولا يساوي أي شيء، تحاصره خيالات كئيبة ذائلة: مشاهد القرى المكدسة إلى جوار الجوامع، قرى مثل أعشاش الصقر، قطعان الأغنام الصغيرة تتداخل مع مشاهد شتاء نووي، أمطار حمضية، غابات متفحمة، مناظر محطمة.

أوقف السيارة عند إحدى التقاطعات، وأخذ يفك طلاسم الكتابة الممحية على اللافتة:

«طريق بلا مخرج»

أيستطيع أن يعود أدراجه للسير خلفًا؟

محيت آثار الطريق خلف ظهره، واشتعلت السيارة المفككة كأنها أصيبت بصاروخ عدو.

وأبصر وسط هذه الجغرافية الخربة شجرة عملاقة، بدا ظلها مثل العطاء والهبة وسط الطرق الضيقة المعتمة والأزواج المشتعلة.

أهي النهاية؟

كانت تنتظره واقفة، وهي غارقة في النقاش مع السيدة ذات المظلة.

عبـرت أماكن جافة قاحلـة وتحملت مظاهر الخـراب القاسي، وعانـت مـن استشهـاد الأرواح والآلام الباطنيـة التـي ذكرهـا المتصـوف، وبعـد مرورهـا بكل التجـارب، ولدت مجـددًا في رشاقتها ورقتها ونضارتها، ترتفع في فضاء غير محدد، توجد فيه في حالة من انعدام الوزن اللطيف الحالم.

«وبما أننـي لا أستطيـع أن أكون «بياتريث» التـي عرفتها»، قالت ذلك بلهجتها المتواطئة السعيدة، و«إذا أردت أن تزور جهنم سيكون من الأفضل أن تلجـأ إلى خدمات مكتب سفريات. وهناك سيعرضـون عليك كتيباتهـم المصورة، وبهـا برامج الرحلات، وسيضعون تحت تصرفك مضيفة تتحدث عدة لغات».

تضحك مجـددًا، مثـل الأيام الخوالـي، حين كانـت تنتظرك بالقـرب من باب الخروج ثم تذهبان لتواصلا نقاشكما عن شخصية الراهـب «هيتـا» ومسرحية «لا ثيلـستينا» على المقاعد العامـة بـ«واشنطن إسكوير» أو بمقهى قريب من القسم. كانت تدخن مثل عادتها سجائر جاولويزيز الزرقاء.

في لهفة الشاعر ليتعرف إلى أصدقائه وأعدائه في دوائر جهنم، ألـم يدلل ذلك على مرض طفولي ولذة منحرفة؟ ولتضرب مثلا بـ«فيليبو أرجنتي» في النشيد الثامن.

من غير الممكـن وصف بشاعة الألم، بينما رجلنا الطيب، بدلاً من التعزي لمعاناة التعس، يتسلى بتأمله.

تنزلقـان بسرعة، كأنكما في ساحــة للتزلج على الجليد وتجذب هــي من حقيبتها نسخة «الكوميديا الإلهية» التي تحوي ملاحظاتها. ويـا للأسف؛ لأنها لم تدرج في فصولهــا دراسة مقارنة بينها وبين «المعراج» لـ ابــن عربي والتعمق في الحقل الــذي دشنه «ميجيل أسين بالاثيوس».

مفهــوم الرحمة الإلهيــة لخاتم القديسين لا يماثــل بأي شكل من الأشـكال مفهومها عنــد الشاعر الملحمي، وبالمثــل لا يستحق هذه القســوة والافتقــار للأحاسيس. هــل تتخيل ابن عربــي يكتب هذه الأبيات: «سيدي» قلت، «أتمنى بشدة / قبل أن نترك هذه البحيرة/ رؤية المتهــم يغرق؟» أعرفـ تمام المعرفــة أن أحدًا لا يقدر على الحكــم على عمل مثل «الكوميديا» في جمالها وتماسكها انطلاقًا من هذه التفاصيل، لكن يجوز الحكم على المؤلف من خلالها.

أنــت الآن داخــل ما يشبــه وكالة للسفــر رفعت عليهــا لافتات للوحات «بوسكو» و«ماء النار» لـ جوستابو دوري. وضعت على العارضــ قائمة أسعار للرحــلات المختلفة والجــولات السياحية. كتب بالفرنسية: «نقــدم لكم أسعارًا استثنائيــة»، تقول المرأة التي تحمــل الشمسية، بينما هي منغمسة بين الهواتــف المتعددة حولها،

«إنه عرضــ رائع»، وعندما تضع السماعــة يجيب الصوت على عدة مكالمات هاتفية في الوقت نفسه: «نعم. . غدًا، أرجوك انتظر قليلاً. حسنً ا سأحجز لك الأماكن في لحظة».

وعقب حوارات قصيرة، تتخللها الزفرات والأنين،

لم أعد أستطيع

يجمع الرسائل المرسلة عن طريــق الفاكس، ويفحص بسرعة شاشة الكمبيوتر.

تقــول الموظفة بالفرنسية بعد أن نظــرت أخيرًا لك - معذرة - كلي آذان مصغية.

تلتفت إليها طلبً ا للمساعدة، لكن تكتشف أنك وحيد: لقد اختفت.

علــى مــا يبدو أن السيــدة المتبرجــة، كأن على وجههــا قناعًا، مزججة الحواجب، جفناها مصبوغان، ووجنتاها مطليتان، بالمثل وجهها بمسحــوق الأرز، بينمــا شفتاها مصبوغتــان بلون قرمزي فاقع فيبدو مثل قلــب، أدركت عدم تركيزك فمدت مروحتها بدلال وغواية.

No vous inquietez pas! Une visite pri vee avec un guide vous eclairera advantage(2).

---

(2) لا تقلق، زيارة خاصة مع الدليل ستوضح لك الأمر بشكل أفضل. (المترجمة)

تحلـم أنك في متحـف كبير للتماثيـل الشمعية؛ مثـل التي رأيتها سابقًا حيـن زرت باريس ولوس أنجلوس. تعبر خلال ممر مكسو ببسـاط فخـم، وعلى جوانبه علقـت لوحات كتب عليهـا «صديقة الملذات» فضـلاً عن رسومات تبرز الجحيم لفنـان «الكوميديا». تفتقـر المضيفة التـي ترشدك إلى ملامح محـددة، ولاحظت؛ أنها تتعامـل معك بعجرفة واضحة، معرفتهـا الواسعة تصيبك بالسقم، فتتفحصـ التماثيل الثابتة فوق القواعد فـي محاولة لتتعرف وجوه معروفة لديك.

يتلـوى أحـد الأجساد المرفوعـة على خازوق حتـى اللحظة، ويبدو أنه يتحمل الألم بثبات وتكسو وجهه ابتسامة متشنجة.

التوضيحات التي تبـث عبر مكبر الصـوت يصاحبها سيمفونية مؤلفة من ضجيج كور الحداد، وهبات الرياح وأنين الغضب.

وهـؤلاء الأشخاص الذين يرتدون الملابـس الفخمة، تكسوهم هالة مـن الحكمة والقداسة، هم المتابعون لـ«ابن تيمية»، و «تور كيمـادا» و «منيندث بلايو». لا يعانون من أي عذاب، سواء كان الكبريت المصهور، أو الالتهام المتواصل أو سهام نارية. فعذابهم نافذ وحاد. يتأملون داخل دوائر المجد من أدانوهم بالكفر والزندقة

والانحراف الخائن بسبب ضيق أفقهم: يزون المعلم الأعظم وخاتم الأولياء «ابن عربي»، «الحلاج» «البسطامي» «السهروردي»، وأتباع الشاذلية «المنورين المهجورين»، إلى رفيع المقام «ميجيل دي مولينوس»، إلى «دون خوسيه ماريا بلانكو». فيا لدرسهم الرهيب. اعتبروا فردوسهم أو جنتهم مثل نادٍ مقتصر على طائفة صغيرة و تجاهلوا أن الرحمة الواسعة لله الواحد.

(من الذي يتحدث؟ أهي المضيفة التي ترتدي الزي الموحد أم هو صوتها يتردد لسبب مجهول، بحذر وغموض في ظلمة الظلال؟ وهذه الشخصيات التي تلمحها على الحوائط، هل تشكل أيضًا جزءًا من العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا خفيفًا مثل الذي نبصره في الأحلام؟)

تستدعي بعض الشخصيات المألوفة اهتمامك. تفحصت حين ابتعدت عن الآخرين سيدة تضحك بمفردها، من دون أن تتمكن من التعرف عليها بدقة، كانت كأنها تحتفل بالانتصار في مؤامرة أو مكيدة سرية. وقف إلى يسارها صحفي شعبي منافس لـ ميداس، يحول كل ما تلمسه يداه إلى عمل فلسفي. وهناك أيضًا كائنات صغيرة تتحرك في مكاتب بحجرات أحد المنازل المعتمة مرتدية أقنعة ثعالب البحر.

«هلـم بنا»، قالت عبارتها في لهجة تهكـم لطيفة. لتقل لي الآن إنك لئيم ومهوس مثل دانتي نفسه.

هـل سيهمك بحـق الشيطان أن تجـد واليكريا المـرأة الليتوانية السمينــة مدمنــة الكحول، وهــي تكتب ملاحظتها عـن الكتب التي قرأتهـا في أقبية مملكتهـا المتلاشية المنهارة؟ ألـم تلفق أنت بنفسك إحــدى المخطوطات خلال حياتك؟ (هــذه الشخصيات التي تتأملها وتنتبـه إليهـا مرتبكًا، أهــي تنتمي إلى عالم مرئــي؟ ووجودها في المتحف مجرد عبث أم هــي رمزية وحسب؟ من أدرجهم في متن الظلال؟ أهو خيالك المنتقم أم حيلة حاكها منكر؟)

«هذا الرجل الثرثار الخبير في اللا شيء»، قالت المضيفة وهي تشيــر بإصبعها إلــى الصحفي الشعبي، أتعلم أنه لــن يؤثر في عالم الفكــر أو الروايــة أو المســرح أو البحث، على الرغــم من إنتاجه الغزيــر الذي بذله في هذه التخصصات. وينطبق عليه المثل القائل « أيها الإسكافي، فلتعتني بأحذيتك».

لكن بما أنه يجهل هذه الحرفة، فلتقل له بطريقة مهذبة:

«أيها الفارس، فلتعتني بأحصنتك».

(أليست الطالبة في الفصل الدراسي التي تغطي بشرتها البثور،

وفمهـا مغلق بنوع من الأغلفـة أو كمامة تطهو فيهـا لعابها النتن؛ أليست إحدى شخصيات كتبك؟

لماذا تصر السيدة على أن تريك هذه الكتلة العفنة والمحترقة؟)

أترغب في الهرب من المتحف، والتحرر من ثقل هذه الزيارة الموجهة، لكنها تتوسل إليك ألا توقظ المضيفة بحركات أو إيماءات غير حكيمة.

تقول: تحلي بالصبر، ألا ترين أننا كائنان في حلم؟

عبثـا تبحثان فـي هذه الأجـواء والممرات المكسـوة بالسجاد، واللوحات على الجدران، عن أية لافتة تشير إلى الخروج

EXIT، AUSGANG, SORTIE, USCITA.

سيغلفكمـا الظـلام الكثيـف المصمت فـي المدفـن القبوي حين تهبطان إلى وحدة الظلال في محيط مدينة الأموات.

-12-

أتـــرى هو توقع أم مجرد حدس واعد، أم الوله الشديد للطهارة الشعائريـــة، أم الذاكرة أم بريق اللقــاءات السابقة؟ لست على يقين محـــدد، ربمـــا كان الأمر مزيجًـــا من كل هذا، مـــا يدفع بخطواتك إلى هذا الصراط المضاء بشعـــاع رقيق من أشعة الشمس، صوب الحمام المجـــاور لجامع الحي. إنها ساعـــات الحرب الفاصلة، من دون أدنـــى أمل فـــي الاتفـــاق أو الهدنة، حين ترقـــد آلاف الجثث المتكلســـة بفعل سيل النيران، ترقد تحت سحب سوداء كثيفة في ليل مزيـــف كبريتي متشبع بالأبخرة الثقيلة. هل أنت بحاجة لتغتسل من أثر غثيان معنوي أصابك؟ وأن تزيح عن كاهلك لبرهة هذه الهوية المسببة للشقاء؟ أن تغوص فـــي مملكة معتمة غير محددة. سيكفيك أن تعبر هذه البوابة التـــي تقسم ما بين الضوء والضباب، أن تخلع ملابسك فـــوق دكة خشبيـــة وضيعة، وتأمن وضـــع ملابسك لدى حارســـ النفوس المتطهـــرة، وعند موضـــع قدميه جلســـ متقرفصًا شـــاب هزيل يدخـــن الكيف، متدثـــرًا بجلبابه الـــرث معتمرًا عمامة عفريت.

هل أنت في جهنم السفلى حيث المقر الذي ترشح فيه الظلال؟ أم هو البرزخ أو العالم الوسيط الذي تستقبل فيه الأرواح جسدًا رقيقًا

وفقًا لكلمات أشرف الأولياء؟ يمحو الضباب والحدود، ويظلل المشاهد، يضفي هالة قوامها الخطر المداهم فوق الممر وأرض الزلقة، ما بين الأشباح التي تتحرك بحذر، والأخيلة المنهكة تبدو مختلفة الأعضاء والأطراف. هل ستتقرب إليهم بدلو إلى حوض القاع؟ بينما لم تعتد عيناك بعد الضباب، ولا يكاد يضيء سوى بصيص من الضوء الخافت، مصدره النوافذ الصغيرة، تبحث متلمسًا ركنًا تمد جسدك فيه ما بين كائنات أخرى منهكة ومتهالكة قوامها الحلم نفسه. هل يأتون أيضًا لغسل رعبهم من هول المذبحة، ومن الهواء الجاف المدمر، من الإعصار الغامض والعاصفة المشتعلة، من الصخور النارية المنبعثة من الآبار، وعمليات القصف التي ترزح الأرض تحتها فترتعش وتخور؟ يلتهم البخار أشكالهم الهلامية. البعض منهم يتحرك ببطء. تنوء ظهورهم بالحمل في انتظار الغسل المطهر الذي سيبعثهم من جديد. والبعض الآخر ساكن بغير حراك وكأنهم مصفوفون في مستودع للجثث، وهم غارقون في الحلم أو الإغماءة. وسط هذه الكتلة المبهمة عديمة الملامح ستكتشف في ارتياح وجود شاب طويل بهي الطلة، صدره مفتول، عضلاته بارزة عروقه نافرة رشيقة. تضيء وجهه ابتسامة بيضاء ناصعة تبرز شاربًا أسودَ رفيعًا. بدا جلده لامعًا بنور فسفوري رقيق وبينما كان يتحرك

بخفـة بين النفوس المنهكة المريضة، لاحظ أنه يخترقها بسلام مثل شعاع الشمس للأجسام الشفافة.

المـلاك - نعم لقد تعرفت إليه علـى الفور - كان يحمل في همة ونشـاط الدِلاء، يمـر ما بين الزبائن كأنها خيـالات واهنة تتحرك تجاهـك، لينصـب معهم منطقة محـددة تفصلهم عـن الباقين فوق ألواح المرمر الساخن الرطبـة. ألم يعش ابن عربي تجربة مماثلة خلال طوافه بالكعبة. خلال ذهابه وإيابه إلى الحوض، ستتنبه إلى أنـه يغطي أعضاءه بحشمة مرتديًا رداءً صغيرًا، ويبقى غير مرئي لبقية المجموعة. لا أحد غيرك قـادر على رؤيته، وليس بإمكانك توجيـه التحية له، تخمن أنه نكيـر نفسه. وحين تحجبك دِلاء المياه عـن أنظار الآخريـن، ستشعر أنه جالس إلـى جوارك ويدعوك لتوليه ظهـرك. منبطحًا على بطنك فـوق الأرض التي لمعت قبل قليـل، ستترك نفسك ليغسل جسدك ويدلـكك، بلا حراك بين يديه النقيتيـن الصلبتيـن، سلبيًا مثل ميت في رحلـة التطهر. هل حانت لحظة هجرة الروح لتعيش بعد ذلك اللحظة الجليلة للغسل الطقسي؟ هل سيسبل عينيـك، ويسد أذنيك، وفتحتي الأنف بالقطن، ويربط قدميـك ويديك فـوق صدرك ثم يميـل جسدك إلـى اليمين صوب الكعبـة؟ يفرك نكيـر جسدك بطاقة كبيرة، يتحسسـه ويحدد أماكن الشـد والعضلات، يخضعك لوقفات ودرجـات منهجية ومحسوبة

للتعذيـب. تتحـول إلــى مجـر د مستقبِـل لأحاسيس الألـم القاسية المتدرجة، لن تتمكن من إصدار أية شكوى.

تصــدر عنه أصــوات وصفير غريــب ونبرات حلقيــة وأنفاس متوحشــة، بينمــا يرقد بكامل جســده فوق ظهرك المنهــك. ساكنًا مثـل المكمم تتابع فقرات تعذيبك: يداه الوحشيتان تتشبثان بكتفيك، تجبرانــك على ثنــي ساقيك وذراعيــك، تضغطان علــى عمودك الفقــري فتجعلانـــه ينثني وفقًا لإيقــاع شهقات ليســت بشرية. تجد نفسك منسحقًا تمامًا تحت ثقله وتعجز حتى عن التنفس. ماذا يرغب في فعله معــك؟ هل يرغب في فصل أجــزاء جسدك وشل حركتك من الحــزن والرعب، وقتــل أعضائك المذنبــة لأقصى درجة؟. بالرغم مــن أنه أبقى وجهك لصيق الأرض ليعمي بصرك عن كل رؤيــة، فتسجل المشهد غير المتوقع كأن روحك تضاعفت وأصبح بإمكانها أن تتطلع إلى نفسها من الخارج: كأن الملاك طائر جارح تهــزه ارتعاشات السفاد، كان يهز جناحيــه بعنف، ويدس مخالبه فــي ظهرك، وينقر جمجمتك بمنقاره. أكان هذا من محض خيالك أم هــو متوقع؟ المعانــاة غير محتملة وعبثًا تتضــرع إليه «خليني، بلاتي» فلا يزيده ذلك إلا غضبًا. كنت تحت رحمة رغبته المدمرة بينما قلبك ينتفض من الرعب.

مــا الجريمة أو اللعنــة الإلهية التي تكفر عنهــا؟ على الرغم من صراخــك بكل قوة، سيكــون الوقت قد تأخر: علــى الفور ستعاني

من الضغط المؤلم غير المحتمل على قفصك الصدري والدق على ضلوعـك. يغطي لهاث الكير للمـلاك على صوت يخيبك ولا يبدو أن هنـاك أحدًا في هذا الجحيم مهتم بالتدمير القاسي. شدة عناقه لك تكسر عظامك النحيلة، فتتكسر كأنك دمية بلاستيكية، يحطم هيئتك التعسـة. هل سيشرع في تفتيت أعضائك فيعاد خلقه بالتهامها؟ فقط عندئـذ ستدرك بمرارة الشرك الذي سقطت فيه. جمال الشاب .. ألم يكـن ذلك مجرد طعـم استدرجك به من يختبـرك؟ ذلك النور الغامضـ الـذي أحاطت به علامـة واضحة أم حجـاب يداري به غرضه في الإغـواء؟ وكيف يمكن تفسير ضغطـه القوي الخلفي، ولهاثه الحيواني ولذته المتقطعة؟

حين تستيقظ، ستجد جسدك قد عاد إلى حاله السابقة، لكنه مشبع بالعرق.

لماذا دانتي؟

حتـــى إن اعترفنا بــدوره الرائد في تأسيس اللغــة وقوة أشعاره المترعــة، ومفهومه الهندسي البارد للآخرة، ألا يصطدم كل ذلك بمبادئ عصرنا ومشاعره؟ الوحشية الجامدة لوصفه، التي لا تقدر تعبيرات الشفقة العارضة على التخفيف من أثرها.

أتــرى هــل تتوافق هـذه التعبيرات مــع المثل العليــا كالتسامح والشفقة التي تهدينا؟

كانت تجلس قبالته، على الطــرف الآخر من المائدة المستطيلة المنخفضة المثقلة بالكتب، فيما استعاضت – كما هي عادتها – بمدق نحاســي صغيــر يصنع به هو أدواتــه من أقلام وممحــاة وبرايات للأقــلام ودبابيــس. كانت تدخن وتدخــن، أحقًا تدخــن سجائرها «الجاولوسيــس البلو» وفتحــت برقتها المعهودة المــزلاج لتهوية الحجرة. أمالت الرأس بخفة، كان بالإمكان مجددًا رؤية الأسقف، النوافــذ الصغيرة، المداخن، هوائيات التليفزيونات، وقبة الأوبرا المائلــة للاخضرار، وتلك الأطياف البعيدة التي تنعكس مع بنايات حــي «ديفنسي». أم أن المشهد كان محضــ لوحة رسمت بمهارة

وبكل التفاصيل الدقيقة، وبهدف أن توحى بأن كل شيء يجري كما كان عليه في السابق؟

«تأمل ألوان السحب!» قالت بينما تقرأ ما يجول بأفكاره أحقًا تبدو غير حقيقية؟.

لكن هذا الضباب الغائم للمدينة، وحركة الأتراك خلف النوافذ وهم في المحلات يصنعون الحلوى، وهديل الحمائم فوق الأسطح الرمادية، كيف يمكن تفسير كل ذلك؟. لقد جاءت لكي تعيد إليه ملاحظاته المكتوبة عن «دانتي»، وبقيت غارقة في تأملها للوحة المدينة أمامها، كأنها تحاول أن تركب محض صورة للمكان، ربما لتؤكد أنها عادت مرة أخرى. تراتبت الأسئلة في ضميره الباطن وهو يراها مشرقة، مستقلة، رائعة، تصعد السلم بسلام، شاخصة للهدف وفقًا لـ «الدليل» لدرجة معرفتها.

نعم، لكن لماذا؟ هل تبني الإيمان بالآخرة بحسب النصوص الأولى المبدئية لكتاب «المعراج»، هل سيطرح تقدمًا في طريق الإنسان الطويل نحو السلام والتناغم؟ لماذا هذا الإصرار على الغضب والعقاب بدلاً من الصفح والرأفة؟ ألم يكن من الأفضل التعلق بالصوفيين ونبذ اللعنات الغاضبة؟

كان على وشك أخذ المفاتيح والذهاب ليعد لها فنجانًا من القهوة،

لكنـه تراجع على الفور عن الفكرة. كيف له أن يعبر الممر ليشرح لزوجته عودته مـن الظلال من غير أن تجفل من الفزع والعاطفة علـى حد سواء؟ ألـم تكن قد عانت كثيـرًا بالفعل من حبـه القصير المتحفظ ليأتي ويفرض عليها لقاءً مباغتًا بعد غيابه النهائي؟ استحالة عبـوره لعتبة الباب شلت حركته تمامًـا. الفضاء الواهي الذي كان يتحرك فيه اقتصر على حدود حجرته الداخلية.

-14-

كل فـرد يدرك مستوى معرفته بإدراك الضرورة: يهرع إليها وإليهـا يسكن، مثل الطفل لصدر أمه، ومثـل الحديد للمغناطيس. وإذا ما حاول أن يهرع لقدر آخر فلن يفلح.

وبالرغـم من محاولته تحقيـق هدف آخر فلـن يتمكن حتى من مجرد الرغبة في ذلك، لن يحقق هذه الأمنية.

قبل ذلـك كان الأمر مختلفًـا تمامًا: فكل مُختـار يجد في تحقيق وجوده غايته والعوض عن آماله وتطلعاته.

يهجران قراءة «ابن عربي» ويتأملان في شاشة، مشهدًا قصيرًا للسموات السبع، والأراضي السبع، طوابق جهنم السبع، ودوائر الجنة، والحجـب المتعددة، الأنوار والبحـور والجبال، تتلاحق المشاهد ويعلق عليها صوت يقول:

هذه هـي الحديقـة، مزروعة بأشجـار ضخمة سامقـة، وافرة الثمرات، يستظل بظلها هؤلاء الذين نالوا العفو عن ذنوبهم وعبروا طريـق التطهر. أنهار الماء واللبن والخمر والعسل، دون توقف، تطهر وتسكـن بجريانها قلوب هـؤلاء الشعـراء الساكنين بها؛ وقد تعافوا من مشاعر الغيرة والحسد التي سممت وجودهم، ينعم الأدباء هنا بسلام روحي غير مألوف هناك، وصداقة وأخوة حميمة.

لو أنني أخبرك بحق فـإن هذه الدرجة ليست ملائمةً لك، قالت ذلك بينما تضغط زر الجهاز عن بعد. لا أتخيلك في واحدة من هذه الندوات الساخنة للشعـراء، أو الروائيين أو النقاد، أو علماء اللغة والنحـاة، الذين طالما حازوا علـى إعجاب مواطني بلادك، حين يتناقشون فيما بينهم في قضايا أدبية تستغرق دهورًا ولا تنقضي. أية عقوبـة قاسية تلك التي ترغمك على المعاناة في صحبة الأكاديميين وخدم السلطـة، والشخصيات الجوفاء المتشحيـن بالأوسمة، كل هـذه الشرذمة من شعراء مدرسة كفافيس، ربات الفن المفوهات، والمتغطرسيـن المنتفخيـن بثقة النفس الزائفـة، واللائي اعتدت الفرار منهن يحدوك الرعب.

لا أنكـر أنه علـى الرغم من احتقارك لطبقـة الكتاب متوسطي القامة، فإنك ارتبطت بعلاقات صداقة بمجموعة محدودة، يضاهي حكمهـم الأدبي، في كتاباتك، ويفوق جميـع المقالات التي نوهت بأعمالـك على مستوى العالم. لا شـك في أن غياب البعض، الذين انقطعت عن رؤيتهم لعهد بعيد امتد لسنوات إثر ابتعادك عن الأشياء الدنيوية، جعلك تشعر بالإحباط والحنين، نعم أعلم ذلك.

ألـم تر خايمي في المنام تحرسـه فتاة مذهلة الجمال ترتدي جلد النمر بينما يرتقي هو سلم «جراند أوتيل» أو «بلازو» وعندما لاقاك احتضنك وحياك دون أدنى شعور بالضغينة، وملامحه الدقيقة إثر

المرضــ الذي فتك به، وهذه الطلة الشبابية، التي يحتفظ بها كطفل نشأ فــي رغد، طالما سببت لك ضيقًا؟ و« مانويل» و«رينادلدو»، ألــم يهرعــا إلى جلساتــك الليلية إلــى الدرجة التي رغبــت فيها أن «تعزم» عليها في ليالي شهر شعبان وطقوس النشوة المصاحبة؟. ثم حجتك إلى قبر «الشاعر» المدفون في الأحراش، وهذا الشعور بالسكون والأمــان يناله من يزور وليا. ومعرفتــك المسبقة بأنك سوف تلتقي بمريدين آخرين مجذوبين لبركة قداسته . . بالطبع هى استثنــاءات، لنفورك من جلسات النقاش في المقهى أو التلفزيون، ولجثوم هــذه الطيور المروضة في الجزء الآخر من الأرض التي تمثلــت في أرواح طيور أخــرى، وفقًا لكتابــي، تحلق بحرية في روضــة الجنة، وتقف على فروع الأشجــار، تقتات من ثمارها، وتشرب من مياه أنهارها وتتحدث مع الرب.

-15-

ترى أية درجة ستحتل في حفلة النفوس الكونية؟

وبعد ارتحال هائم بين السحاب، تعترضه من حين إلى آخر حركة الطائرات في شكل أفقي أو حدة مخلوقات ملائكية مختلفة أشكالها.

(أهم ملائكة، أم رؤساء الملائكة، أم سيرافيم، أم ملائكة آخرون، أم هي عروس، أم صفوف الملائكة، أسماء وردت في تصنيف كتاب التلقين الشفهي الذي درسته بالمدرسة؟)

وقد تعرض للخطر ارتحال الأرواح الهائمة في قائمة الانتظار، حرة فضفاضة مثل الطيور الصغيرة في البرزخ.

(ترى أيعود اكتظاظ حركة السير لإضراب نظمه المراقبون لهذه المملكة، بحسب افتراضها، أم هو العدد الهائل لتلك الكائنات السماوية. التي تتدفق وتتخبط في لحظات الذروة؟

اصطفت جميعًا عاليًا، ومن هناك تبدو الأرض كأنها حلقة صغيرة بين أخرى، من تلك التي تشكل بعدًا مفقودًا وسط سهول مترامية أبعادها بلا حدود.

نساء ورجال ذوو محيا أبيض ناصع جميل، تزينوا بملابس تضوع منها روائح طيبة، ينزلقون برقة في حركات ذات وقع

منتظـم، من دون الالتفـات إلى معرضـ السيدة صاحبـة المظلة التي تـروج لقدراتها في التنبؤ إلى جوارهـا لائحة إعلان تومض بحروف مضيئة: تلفزيون الرؤية.

استلقيـا علـى أريكـة، إلى جـوار مكتبها المغطى بـالأوراق والحواسيـب الآلية والتليفونات. وبعـد أن طلبت إليه السيدة جميع المعلومـات الضرورية، وضعتهـا بالكامل في ماكينـة، مثل تلك الموجـودة في صـالات ألعاب القمـار، ثم انتظـرت إجابة جهاز «الفلاش الفلكـي»، بينما تحرك مروحتها. وأخذت تطوي شريط الأوراق الصادرة عن الجهاز ورقة ورقة عند خط القطع، لتجمع بذلـك كتـاب حياته. مرت لحظـات طويلة تبـادلا خلالها نظرات التواطـؤ والدعـم، محـاولاً أن يكشف فـي تعبيـرات السيدة عن مضمون الحكم.

قالت في النهاية: حياتك ليست نموذجية كما ينبغي. أليس كذلك؟

أخـذت تتصفـح الأوراق المنثنيـة مـن دون أن تمعـن النظر بإحداها، دل ما كانت تقرأه على علامات طيبة بحسب ما وشوشت إليه الأخرى في أذنيه.

أعلم أنـك تحب زوجتك، لكـن حياتك معها لم تكـن دائمًا مثل فراش مكسو بالورود. هل تفهمني؟ أما علاقتك بأشقائك وشقيقاتك فهي تعيسة لأقصى درجة. وفيمـا يخص كتاباتك فلنغض الطرف

عنهـا رحمة بـك. فأنت نفسك قـد اعترفـت! «to be dead to» decency، حسنًا.. حسبًا، أعرف المقطوعة القديمة عن الصدق والاعتراف كأنك على شفا قبـر مفتوح. محض ترهات وألاعيب ساذجة لاصطياد السذج. ماذا تريـد أن أقول لك؟ فبطاقتك الفلكية لا توصف بأنها مضيئة.

أترى هل كانت كلماتها علميـة ذات سند؟ نصف بين السحاب، ونصف قرب الجبل، انسحبا بروحيهما الخفيفتين المذهولتين، ولم يعلم، هل سيحترق يوم الحساب أم سيدخل في الفضاءات السماوية يضيئها الإدراك الأعلى؟.

يتلمس طريقه بين ضباب «الحاما»، يمرق خوفًا من ملاك يغويه، وتعذيب غادر، تنفذ فجأة إلى لوحة رائعة الجمال:- وفي حلم بطيء، ينعم بصرك بمرأى عشرات من الرجال الأشداء، فرادى أو في جماعات، مظهرهم وحشي، أياديهم متشابكة كأنهم يوقعون عهد سلام. يبدون كمن يحملون الأثقال، عضلاتهم بارزة، وأذرعهم تطوق خواصرهم، ودروعهم على صدورهم المفتولة، سراويلهم الجلدية تتوهج، باطن قدمهم راسخ في الأرض. أجسادهم الصلبة، هيأتهم الجسور، ومظهرهم دليل على شدة إيمانهم، وتدريبهم الموسيقي والرياضي، وأيضًا تجربتهم وتكوينهم الروحي العميق. عند القفز والدوران حول الحفرة التي يعملون فيها، يقبلون باطن أصابع كفوفهم اليمنى، ثم يتلمسون الأرض بها كناية عن التواضع، يقبضون على الأقراص بمحاذاة الحفرة ويضعونها عند أقدامهم، يتحلقون حول المرشد. ينبطحون على بطونهم، مباعدين ما بين سيقانهم لأقصى درجة، أذرعهم مفتوحة عن آخرها لتلامس أطراف الألواح، يقومون بسلسلة من الانثناءات، يرفعون جذوعهم ويشدون عضلاتهم، بينما تتموج أجسادهم تحاكي موجات المد والجزر، تلك الموجات

الناعمة لتيــارات البحور. يحفزهــم المرشد بحــركات لولبية فيما يحصي انقباضــات أجسادهم الحلزونية يتضرعون ويبتهلون المدد مــن «علي» والأئمة القديسين. فقط عندئذ تكتشف مقعد «المعلم»، المتــواري في العتمة الخارجية لحزم الضــوء الخافتة التي تقترب من الحفرة، حفرة المسرات: متكئًا على منبره، في حجرة الطبل، يضبــط الإيقــاع بشكل عجيــب بكلتا يديــه، يعدله وفقًــا لمتطلبات الإنشاد، يحدد بداية ونهاية التدريب، ثم يدق الجرس بدقة وحيوية منقطعــة النظير. موهبته الفذة تدفع وتحفز قوة الأبطال الرياضيين التواقيــن لسمــاع حكاياتــه الملحميــة، الصلــوات علــى الرسول والقصائــد الصوفية الرقيقة. أهي أحلام لازلت تحلمها؟ وماذا عن العمالقــة المسلحين بمطرقــات خشبية مستطيلة ضخمــة تستند على فجوات أكتافهم وكأنهم مجنــدون يتدربون، أترى ينتظرون منك إشارة البدء؟

رؤياك عندما كنت تراهــم يحركونها بشكل متناغم، ويقطعون بهــا دوائر كاملة بمحــاذاة عظم أكتافهم وصدورهــم. أهي حقيقة؟ المشهد المهيب لحاملي الصولجانــات الذين أضحوا أبطالاً في لعبة ورق مترفــة، أيعكس كل هذا مشهدًا ماديًــا محددًا، أم هو محض خيال مبهر بفعل تعرية وضعــه الشائك المهتز؟ وماذا بشأن ملوك الهــروات الرائعين، ذوي الأذرع المقوســة والأوتار الحديدية،

أتــرى انبثقــوا عن عالم سري بــراق ، مثل شخوصــص حلم مباغتة تجســدت في بهاء؟ نشوة وانخطاف وبهجة وغبطة: الوعي بأنك قد ارتقيــت درجتك ، حظك من العظمة والمتعة الباطنة دون أن تقدر روحك على فرصة الحصول عما هو أفضل. ألم يقل «ابن عربي» إنــه إذا لم تمضِ الأمور على هذا النحو ، فلــن تصبح السماء مقرًّا للسعادة والغبطة، بل مقامًا للألم وخيبة الأمل اللاذعة. وحين تمعن النظر تتأمــل عمق الحفرة واستدارتها الكاملــة، الشفرة والصوت لثنائيــة الثواب والعقاب لديك. وهؤلاء الجوالون يطوفون بملاحة ورشاقــة مثل اعتــدال عرناس المغزل ، تنمحــي أطيافهم الصليبية كأنها دوامات أو دوران المراوح.

تــرى هل حظــوا بنعمة حساسيــة اللمس والاتســاق؟، ويا لهذا الإيحــاء أو هــذا الشكل الخرافي الــذي يعكسه هــؤلاء الرياضيون الذين يرتعشون من إخمص أقدامهم إلى أطراف رؤوسهم ، كأنهم شجيرات واهية تحركها نسمات أو السطح المترجرج الهزاز لسائل ما تداعبه ريــاح ناعمة؟ وحين يرفعون أذرعهــم تتلوى أجسادهم مثل هيئة ألسنــة اللهب في فضاء سحري دائــري ، أما زلت منتميًا إلى عالم الأجساد أم ترى أنك تعيش لحظة تبصر ، وأنك انطلقت للأبــد بعيدًا عن المخلوقات والحيل وبالأخص الحساسية المفرطة. مجذوبًا صــوب الحفرة المضــاءة بنور صاف طاعــن يصدر عن

مصابيح، تعجب، وسيزداد إعجابك بهؤلاء الأبطال يستكشفون بحماسة متانة أجسادهم وصلابتها. يشتبك كل منهم بأعضاء غريمه، ويفلت من ذراعه بسرعة وخفة، ويغني المعلم:

إنها عذبة مثل قيود العشق،

هذه المبارزة.. صراعاتها ومغانمها

مجابهة الخصم وفقًا للأحكام

إنها البهجة الصافية.

لكنك تلتهب، تلتهب مثلهم، ملفوفًا في تاج اللهيب، تلتهب، تحترق، وتتلاشى من قدميك لرأسك، مثل كائن ناري خاضع لحلقة المخصصين لنيران الاتقاد، ضحايا طيعون لعاطفتهم وعنف جبلتهم. يدهشك اختفاء الألم، وبطوافك حول حفرة الشفافية، لأجل ما فزت به من تجل إلهي، ستنال المعرفة وأنت رهيف رقيق، ستدرك انقشاع الألم المتأصل للعقاب وبالمثل ذاتيتك الفردية.

-17-

أو كان في رؤية درجته أي إرباك لكينونته، أو تأليه للمخلوق، أو تجسيد للمتعال؟

أجـاب: لاشيء مـن هذا. يـرى «ابـن عربـي» أن تضاعف الأشكال ما هو إلا إيماءة تكوين معقدة للحاضر بعينه. وما المادة، الأشخاص، الأحداث، الظواهـر الطبيعية والأعمـال الفنية إلا علامات لهذا الوجود الحاضر.

وهكـذا فالثراء اللا نهائي وتنوع العالم بالإمكان أن يتلخصا في مشاهد مثل تلك التي وصفتها، وفيها الجمال المشع للجسد، وما هو إلا اتحاد، خطوب ونشوة، برهانًا على أن الأنا والآخر ينصهران في واحد.

وضعت الكتاب فوق الطاولة وشرعت تضحك. ذوت سيجارتها في المطفأة، عند طرف المائدة المغطاة بالمجلات، وعندما انتبهت أطفأتها بعناية، وحركت الهواء بيديها لتطرد الدخان.

وكمـا هو واضح، فقد تعلّمتْ درسهـا كأفضل ما يكون. تحول البحـث عن هامش في ذيل صفحة فـي دراسة عن عالم الآخرة في الديانتين المسيحية والإسلامية في الأعمال السابقة لـ «ميجيل أسين

بالاثيوسـس»، إلى تربة خصبة لعالم ملغـز رائع، محيط شاسع بلا ضفاف. هل تذكر العبارة التي وردت في«The Crack-Up» التي ذكرهـا في المحاضرة خلال أحد الفصـول الدراسية التي ألقاها في نيويـورك: ومفادهـا أن الدليل على الذكاء الحـاد يكمن في قدرته على التركيز في فكرتين متناقضتين، من دون فقد القدرة على أداء العمليـات الذهنية؟ ألم يكن كذلك؟ أثـارت الفقرة دهشتها، فسجلتها لتحفـر في ذاكرتهـا، ذلك أن «ابن عربي» هـو الدليل المقنع لهذه العلامة أو قل هذا الطابع.

فجملـة أعماله، أي الفضاء النصي لأعماله، ما هو إلا مقدمة أو ميـدان تتقارب فيه الأضداد، وتذوب فيـه العداءات، يتصالح فيه المعتـم والمضيء والفاني والباقي، كل فـي انسجام. يقودنا حيث يريـد من خلال ومضات مشرقة أو تجليات، العالم بأسره المؤمن والكافر منه يعظم الرب.

اسمح لي أن أقرأ لك هذه الفقرة: « إذا نظرنا، فلا ننظر إلا له، إذا سمعنا فلا نستمـع إلا إليه. يتجلى في كل محيا، ولا تنظر العين إلى سـواه، هو المعبود فـي المعبود قاطبة». قـد تراني أجترئ، ولكـن هاك قراءتي: الهوة الدائريـة . . غاية ومنتهى لآمالك، هو استجلاء حضوره وولوجوك الدائرة هو فعل الخضوع.

كانت تتحدث في عجلة، في حماسة، دفعت بالدم إلى وجنتيها ، وأبرز ملامحها الوضاءة. ومن النافذة المواربة (هل كان صيفًا؟) ، جعــلا ينظران بإعجاب إلى لونِ الأسطــح الرمادي الباهت، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة إلى الاصفرار ، وناطحات السحاب دقيقة الحجم في حي «لاديفنس» ، وخيال «مون فاليرين» الكائن هناك . هذه التفاصيل الدقيقة وتلقائية حديثها زادت حيرته.

بادرته تسبــق اعتراضه: فلتنسَ «دانتــي» ونصوص المعراج البدائيــة، أم عســاك تفضــل أن نرجع إلــى وكالــة «السيدة ذات المظلــة» ونقوم بجولة مصحوبة بتعليق فــي «الميدان الثالث»؟ أم تفضل مشاهدة عرض فيديو لحكايات «بوش» ولوحات «دوري» المحفورة؟.

عندما يزج الشاعر بمعلمه «برونيتو لاتينو» في دائرة الفاسقين المجرمين، مرتكبي الجرم الأكبــر ، فيصفه وهو مغطى بالبثور ، ووجهه مشوي عن آخره: كيف لنا أن نعتقد في احتجاجاته الناجمة عــن الحــب والاحترام ، إذا وضــح أن الأمر لم يتعــد كونه مجرد انتقام بائس.

لماذا يتركه في هذه التربــة المثخنة المضطربة، في هذا الرهط المقدر له بكاء آثامه إلى ما لا نهاية بوجه كالحبر غيّرته النار؟

يا لــه من مثال على السماحة والــروح المسيحية! فلنرجع مرة ثانيــة إلى موطنك: الجحيم هو تلك الغلالة الفاصلة التي تحول دون أن يعــرف الإنسان الله في جميــع صوره، هو الحجاب لمن يتأمل في تجلياته دون أن يراها رؤي العين. هذا هو ذنبه وعقابه الحق.

أخذ شخص ما يقرع باب الأستوديو مستخدمًا الطبلة النحاسية، فتبــادلا النظر في قلق: أو يقدر هؤلاء الذين لم يلجوا بعد إلى فضاء الشفافيــة أن يلمحوهما، ويتقابلوا معهما، ويتبادلوا معهما الحديث؟ التزما الصمت وحبسا أنفاسهما. وأخيرًا، بعد انتظار بدا بلا نهاية، تناهى لسمعهما صوت شيء ما ينزلق من أسفل الباب، يتبعه صوت خطــوات متذبذبة على الأرضية الخشبية، تــلاه أزيز المصعد يبدأ يتحرك.

-18-

وعلـى السجـادة المفروشة على الأرض فـي المدخل على بعد سنتيمترات قليلة من الباب، ظرف صغير مستطيل من دون إشارة عليه لهوية المرسل إليه. فضّه بواسطة فتّاحة الورق، بينما جسده ينتفض، وقرأ بصوت مرتفع؛ ليخبرها بفحوى الرسالة:

سيدي العزيز:

نطلب منكم الإجابة باختصار شديد، وبصورة واضحة ومحددة عن الأسئلة التالية، ولكم جزيل الشكر:

1- من هـم المتسترون، الأصفيـاء، الأتقياء، الحارسون المخلصون، الذين يتخفون بين الورى خشية أن يبصروهم؟

2- في أي تاريخ تحديدًا بدأتم ممارسة العادة السرية؟

3- ما عدد مرات إخراجكم وما إفرازاته؟

بإمكانـك أن ترسـل إلينـا الإجابـات مكتوبة، إذا بـدا لك أكثر ملاءمـة، وللعلم إن القواعد تسمح لك بالإفـادة الشفهية في مكاتبنا خلال ساعات العمل

تفضلوا بقبول احترامنا،

دكتور نكير ودكتور منكر

خبيرا الحساب

انتفض قلبه. كيف تمكن المحاسبان من الكشف عن سر مخبأه القديم في مملكة الأحاسيس الملموسة؟ أترى يتحركان مثله، بنفس السهولة في مجال العالمين؟ رجع إليها متحيرًا، وتضاعفت حيرته حين وجد الباب مغلقًا على حاله بمزلاج، وأن المكان لا يتيح أيّ نوع من الهرب، إلا أنها اختفت في صفاء وسهولة.

-19-

حيـن استيقـظ أو عبر مـن حلم إلـى آخـر ، أربكتـه المفارقة التاريخيـة. لهـذا الموقـف: ألم يترك - بعـد موتهـا - الأستوديو المواجه لشقته حيث قابلها حاليًا ، لينتقل بأوراقه وكتبه إلى الطابق السفلـي المتصل بشقة زوجته عبر سلم حلزوني؟ وإذا كان انفصاله عـن سجن الجسـد تم هنـاك ، فما مغزى هـذه العـودة التخيلية أو الحقيقية للظرف السابق؟ وماذا عن هذا النفاذ الواضح ، هل يخضع لتعسـف القوانيـن الحاكمة للأحـلام ، أم هو محض أثـر لسلطات مسوخ الأرواح التي تهيم كيفما اتفق في البرزخ خلال الأربعينية؟

-20-

استثمـر في العالم الآخر، تملك أنت ونصفك الحلو قطعة أرض قابلـة للبنـاء، فيلا مستقلة مريحـة، أو شقة مـن طابقين في عمارة فاخرة. تطل بشكل استثنائي على الفضاءات السماوية المنيرة، في مختلف درجات الفردوس أو دوائره ، وفقًا لما يتيحه مسكنك.

نقدم عروضًا خيالية لمعروضاتنـا! تسهيلات كبيرة في الدفع، ومكافآت خاصة للمحاربين القدماء وعربات الحروب.

تصيح السيدة ذات المظلة خلال مكبر الصوت، توزع إعلانات ومطويـات، وتقدم نمـاذج للعقـارات والشقق وتصميمـات بناء صادقت عليها إدارتا الإعمار الحضري والبيئة.

مقر شركتنا القابضة الأصلي فـي «تامبا»، وفلوريدا الولايات المتحـدة الأمريكية، تـم إعدادها بالتنسيق مع خبـراء القيادة العليا لعملية «عاصفـة الصحراء» ذات الشهرة العالميـة، الهرم الكامل للإمـارة الشهيـدة وإعـادة إعمارهـا، وهـو مـا أنعشـ اقتصادنا المحتضر، وملأ الكون إعجابًا وفزعًا. والآن، طويت هذه الصفحة العظيمة من تاريخ قواتنا ورموز علمها النجوم والخطوط، وقرر قطـاع الإدارة بعد اجتماعه بطاقم المساهمين المبادرة بقفزة نوعية ومـد أنشطته في مجال البناء هـذه المرة، التي تحترم عنصر البيئة

بما في ذلك ملكوت السماوات، من خلال تعاون وثيق مع مؤسسة (KTC) ومختلف المجموعات البنكية.

Sans oublier la touché du chic et du refinement. La difference francaise![3]

صرت منجذبًا مثل أرواح أخرى هائمة، نحو قاعة عروض الشركة القابضة، ثم ستتابع معها شريط الفيديو الذي سيعرض المادة الدعائية بمصاحبة أبيات شعر لـ «دانتي» وصورًا من الجنة بحسب رسومات «دوري».

تأملوا الجبل المقدس لكمال الروح وخطوبها، ألباب الفضاءات تعكس الأشعة من عليين، وتطبع على المادة صورتها.

كما ترون فإن الشرفة التي التقطت منها هذه المشاهد لشقة من طابقين في إحدى مبانينا السكنية، مزودة بجميع وسائل الراحة التي تطمحون إليها، بعد حياة كرست للصفقات وانتصار مبادئها للتقدم والعدالة.

لاحظوا تفاصيل حجرة الجلوس، والصالون البانورامي، وأجهزة التلسكوب المخصصة لمتابعة رحلات طيران المخلوقات السماوية، ومسار صواريخنا الباليستية.

(3) دون أن ننسى لمسة الأناقة والرقي، التميز الفرنسي. (المترجمة)

وضـع تحـت تصرفكـم التطـورات التقنيـة وأساليـب الغزو؛ لتستمتعـوا برغد العيش، وكل ذلك بأسعـار خارج المنافسة، وفقًا لما تحتمله مدخراتكم.

وفجأة.

Merde! Mais qu'est-ce que c'est ca?(4)

فبدلاً من تصميمات العالم تحـت القمري والرؤية الطوباوية، عكسـت الشاشة صور خراب ودمـار وأطلال، عربات متزاحمة تشتعل، أبخرة قاتلة تنفثهـا طائرات تحلق على ارتفاع منخفض، أجسـاد متفحمة، مروحيـات تقذف ألسنة اللهـب، مشاهد رعب، شتات جحافل نمل هائج، مشاعل، محيا أطفال ونساء يلهثن لنقص الأكسجيـن، نيران، مزيدا مـن النيران، سفـر الرؤيا، رعب، احتراق جماعي.

(صوت بعيد: Say hello to Allah)

شخصـ مـا (أترى شيطـان أم جني؟) يبدل شريـط الفيديو في الجهاز المتصل بتلفاز السيدة ذات المظلة.

(4) اللعنة! لكن ما هذا؟. (المترجمة)

-21-

هل هي ذكرى باقية من تدريباته الروحية في دير «مانريسا»، أم إعـادة صياغـة تاليـة على ضوء كتابـات «بلانكـو وايت» في «سيرتـه الذاتيـة»، وتداعيـات «إستيفـن ديدالوس» كمـا رسمها جويسـ؟، قالت: تلك الرسومات القاسيـة للعواصف، التشبيه بين الطائـر الصغير وحبة الرمل يلتقطهـا بمنقاره كل عشرة آلاف سنة فـي الشاطئ الشاسع، القصة التعسـة للمراهق الذي تقذف به ألسنة اللهـب الخالـدة، جراء ذنب واحـد هو النجاسـة، يعرض كل هذا ضمـن مشهد مسرحي خبيث، ومحاكاة كهفية قبالة جمهور صامت مرعوب بعد أيام من عزل محكم. يتطابق كل ذلك في حقيقة الأمر مع صيغـة منحطة فقيرة للإيمـان الشعبي بالآخـرة، وما يروجه الواعظون الجهال المتحكمون في بث الخوف.

لم يعد أحد يعتقد في الجحيم ولا في أسطورة الطفل الذي يحترق فـي قدور «بدرو بوتيـرو» جراء خاطر خبيث عـنّ له، وبعد أن دهسته حافلة عقابًا له.

استقرت بهـا الحال بأحد المروج، بالقرب مـن حديقة النعيم، وطوقا بناظريهما بئر المياه مبعث النشوة، تتحول إلى لهب الوجد الحي، والعين التي تعكس عيون المحبوب مجازًا، والشجرة التي

تنمو في صلب الروح المتأملة، نفوس الأبرياء المتجسدة في طيور صغيرة في طواف محموم، وريشها بياضه باهر. بادرت تهدئ من روعه؛ لأنها لم تكن تثق في حواسه، كل هذا يصوره الديوان الصوفي، ولن تأتي السيدة ذات المظلة لتعكر هذا السكون بحوارها المزعج.

قرأت بعناية مادة النص البحثية، وبالرغم من أنه لم يكن باستطاعتها مساعدته في العمل أو ترجمة أوراقه، فإن خبرتها المتراكمة المكتسبة في البرزخ مكنتها من الكشف عن أنوار وتجليات خاتم الأولياء. قالت: جهنم موجودة، لكن خلود الدوام بها لا يفرض ديمومة الآلام. ستمتد الرحمة لتشمل الجميع، وستصبح نار الهالكين بردًا وسلامًا.

ولأنه توجد مخلوقات أرضية وهوائية ومائية، فلماذا لا توجد النارية؟ أو ليست النار هي العنصر الأكثر جمالاً ونشاطًا في العناصر الأربعة؟. أما هذه المخلوقات الملتهبة، مهما كانت خطورة ذنوبها، تحيا وفقًا لقانون طبيعتها، وسوف تعاني إن حرمت مما تستلزمه طبيعتها؛ مثل السمك يختنق حين ننزعه من الماء. فالنار مجالها وفيها تعرف سعادتها الأبدية.

يا لعبقرية الطريقة هذي في تفسير نص الكتاب المنزل! أو تتصور فضيحة هؤلاء اللاهوتيين والفقهاء؟ انظر دائرة الأبطال

الرياضييـن، بادية عليهم علامات السعـادة، وجوههم وشواربهم المقرونة، عضلاتهم المفتولة، وأجسادهم المدملجة القوية، «مثل كتلة كريستالية موشورية الأبعاد، عظيمة الهيئة صافية»!

كم مـن المرات جثوت أمامها فـي ذل وإكبار من هول حجمها وأشكالهـا، وروعة تفاصيلهـا، الصلبة الكثيفـة؟ بصرك بتجليات كـون تسبح له فيـه الكائنات قاطبة، بما فيهـا الأحجار، فهمت بهم عبـادة. لقد ألهـاك تكاثر الأشياء والكائنـات. والآن بعد أن قرّت الـروح وهـدأت، ستقدر على التقـاط انسجام العناصـر وتوافقها بحماسة ساكناً ولطيفاً. انظر مجددًا لعرض الفيديو للحفرة واحتفالية الرياضيين ذوي الأجساد المتينة، تحترق معهم، مع أكثرهم أمانة وأوفاهم شجاعة. يتداخل جسداكما الملتهبان لحد ذوبان الواحد في الآخـر! أوليس هذا ماكنت تبغيه على نحو خفي حين قررت تأليف الكتاب؟

زوجته! أمن الممكن لهذا أن يحدث؟

أتراها غادرت مملكة المحسوس بشكل مؤقت لتحيته، أم يكون هو الذي قفز للخلف فتسلل إلى درجة عالم آخر انقضى ؟ هذا الفضاء الحميم بمظهره المألوف لمنزله، بدا له مقلقًا مثل تلك اللحظات الهادئة الخادعة التي تسبق انفجار العواصف الهوجاء. وبينما يخلع معطفه بحذر، استشعر حركات زوجته بالمطبخ، تخرج مكعبات الثلج من البراد. تتوجه إلى حجرة المعيشة بخطى مرتعشة؛ خوفًا من أن تصدر عنه لفتة مباغتة تخل بالتوازن الهش للعناصر حوله. تتداخل في ضميره أحاسيس ومشاعر متضاربة.

أيجب عليه تحيتها بينما تنسكب دموعه بحنان، مثلما تتطلب الطبيعة الاستثنائية للظرف؟ هل يقذف بنفسه إلى أحضانها ويطلق العنان لعاطفته المكبوتة؟، لكن كيف سيفسر لها بشكل عقلاني مقبول اختفاءه وعودته؟ ألن يكون في ذلك مخاطرة تعرضها لصدمة تحرمها استخدام حواسها؟

على الرغم من ذلك، سمعها تحييه باسمه من المطبخ بطريقة طبيعية، بينما يدخل. كان الوقت المعتاد الذي تتناول فيه كأس

الويسكي بعد يوم عمل محتمل أو زيارة بعض الصديقات.

بدا له المكان ملغومًا بالحيـل، وبعد أن اختبر خيارات عدة، مثل دخـول المطبخ للقائها، أو التسلل خلسة من المصعد الداخلي إلى مكتبـه، أو التظاهر بقضاء الحاجة، فيلجأ إلى الحمام انتظارًا لمـا سيحدث، قرر في النهاية البقاء فـي الصالون الصغير، وأن يسترخي مصطنعاً الراحة في أحد المقاعد الوثيرة.

سألتـه بعد أن ظهرت مرتديةً قفطانهـا الأحمر المشرب بلون بنفسجـي، وجلست على الأريكة بعد أن وضعت وعاء الثلج على الأرض:

- هل اشتغلت جيدًا؟

ابتلـع ريقه غير قادر على التفوه بشيء غير همهمة ما، يشعر بالرهبة والحيرة لوضعه، ومدى واقعية المشهد حوله.

لكـن كيف أنها لـم تبدِ أية دهشـة لرؤيته، ولـم تلامس شفتيه بشفتيها بخفة مثلما تعودت حين يعود بعد طول غياب؟

يبـدو الأمر لهـا؛ كأنه عائد لتـوه من جولة بالحـي أو كأنه لم يخرج أساسا من البيت.

انتظر لحظات ثم قال مخبئًا وجهـه خلف الصحيفة، متظاهرًا

بالاندماج في قراءة أخبار الحرب: تجاوز عدد الطلعات الجوية لقوات الحلفاء معدلاً مثيرًا للدهشة تجاوز ستين ألفًا! وأبرزت أخبار القوات الخاصة المستوى الرفيع لاستعدادات الضباط والقادة إزاء الهجوم البري الوشيك.

قالت: لقد سجلت المكالمات الهاتفية. لا شيء مهم، فقط ترك صاحب إحدى المكتبات رقم هاتفه. وبالمناسبة عندما نزلت إلى حجرتك، عثرت على إحدى درجات السلم على نسخة مدونة عليها ملاحظاتك لـ «الكوميديا الإلهية»، كيف نسيتها هناك؟ هل سقطت منك من دون أن تنتبه لها؟ كانت تتحدث بهدوء يتنافي تمامًا مع طبيعة لقائنا غير العادية، منهمكة تمامًا في الشأن اليومي، حتى إنها لم تلاحظ ارتعاشة يديه واضطرابه العميق. كشف محياها الهادئ وابتساماتها المعتادة بوضوح غياب أي لمحة قلق أو عتاب. كان بالإمكان القول إن باختفائه القصير من العالم مكث قرينه إلى جوارها يؤدي دور الزوج.

فأيهما الحقيقي؟ ذلك الذي يهيم في ضباب البرزخ أم هذا الموجود بالمنزل؟

انتهز انشغال زوجته بمحادثة أبيها تليفونيًا؟ قالت بتنهد: أبي. نهض من مقعده الوثير وألقى نظرة على ترتيب الحجرة؛ ليتحقق من أن شيئًا لم يتغير، هبط السلم الداخلي ودخل حجرة

عمله يلقي نظرة. كانت الحجــرة مضاءة، ووقعت عيناه أول ما وقعــت على صورتهــا - شعر أصفر، عينان زرقــاوان، سلسلة ذهبيــة تطوق عنقهــا، كان وضعها على الخزانــة ذات الأدراج في أعقاب عودته إلى المدينة قبل عام ونصف، بعد هجرته لعالم الخفة خلال أحد أسفاره. تفحص بسرعة رفوف المكتبة المحاذية لمكتبــه؛ قواميس، مدونات، أعمال للمراجعة، كل شيء بقي في مكانه. عثر على بعض أوراق لنصوص له لم تنقح. التقط أحدها واكتشف مضطربا أنها مسودة المخطوطة الخاصة بهذا الفصل.

-23-

رأى في المنام أنه يكتب قصة لـ« ابن عربي»:

وإذا سألتموني وماذا عن حكاية « الجوهري »؟ بإمكاني إخباركم بحسب ما قاله هو نفسه، أنه خرج ذا صباح طيب من منزله يحمل عجينًا مختمرًا إلى فرن الخباز وكان جُنبًا. وبعد أن ترك ماله لدى الخباز توجه إلى نهر النيل ليتطهر، وبينما هو في النهر، إذ به يرى نفسه على الحال نفسها التي نرى عليها أنفسنا في الأحلام، كأنه ببغداد. كان متزوجًا من امرأة لمدة ست سنوات، وله منها عدة أبناء، لا أذكر الآن عددهم. ثم ارتد إلى نفسه، وكان لا يزال في الماء، تطهر وخرج من النهر، ووضع رداءه، وعرج على المخبز ليحمل الخبز، وحين عودته إلى البيت قص على عائلته ما كان من أمر الرؤية التي أبصرها. مرت شهور عديدة، وجاءت إلى المدينة السيدة التي بنى بها في النيل، وجعلت تطالع معالم المدينة. وحين طرقت باب بيته عرفهم على الفور، هي والأبناء، ولم يقدر على إنكارهم.

سألوها متى تزوجك؟ فقالت: منذ ست سنوات وهؤلاء أولادنا.
وهكذا فإن ما حدث في الخيال ظهر ملموسًا في عالمنا.

وهذه إحدى الحكايات المروية عن «ذي النون المصري» وتحتار في تفسيرها العقول.

هل كانت هذه الحادثة إفصاحًا أدبيًّا لبهجة خيالات بعيدة الاحتمال، تلك التي عرفها «بلانكوايت» واختبرها «بورخس»؟ أو أن الأمر، كما لاحظت زوجته عندما عرض عليها النص، مجرد حيلة ماكرة ساقها «الجوهري» ليبرر زواجه من امرأتين، فأكسبها هالة من القداسة؟

ما كانت هي على يقين منه أنها لو كانت محل الزوجة المصرية، لما اقتنعت بالقصة ولما استقبلت امرأة بغداد وبصحبتها حفنة الأولاد.

قالت بحنو قبل أن تغادر الحلم وتتلاشى؛ إنها لحسن الطالع لن تتعرض معه لمثل هذه المخاطر.

-24-

وضعت البهيمة قوائمها عند عتبة الباب وتمكنت منها، وبالرغم من أنني حاولت منعها من الدخول، خارت قوتي إزاء لامبالاتها الجبارة، استولت على المكان بتمهل، تَجول المنزل وعليها سمات المالكة، تتمدد على البساط إلى جوار فراشي وتتأملني لساعات. لا أميز خيالها بوضوح، ولكني تبينت حدقتي عينيها المثبتتين فوقي. لا تفارقني نهارًا أو ليلاً، تترصد حركاتي وخطواتي برباطة جأش، ولا تلتفت بأي حال إلى صخب الزيارات. لم تشعر بوجودها أمي أو أخي أو زوج أمي أو الطبيب الذي حضر لعلاجي.

يسيرون بمحاذاتها ولا يبصرونها، يجسون نبضي ويتابعون صحتي وشهيتي، يعربون عن قلقهم بشأن حالتي العقلية.

وحين أحادثهم عنها لا يلتفتون إليّ، يوجهون لي عبارات التشجيع، ويوجهون دفة الحديث لموضوعات أخرى. يتحدثون عن شطط عابر، انفصام في الشخصية. عاجزين عن رؤية عيني البهيمة الخضراوتين المتقدتين، غير متماثلتين، تبدو أحيانًا كزمردتين مرصعتين في رأسها عند محيطين غير محددين، في أحيان أخرى تجدهما معلقتين في الفضاء، متوازيتين، طافيتين ببؤبؤهما الذي لا يُسبر غوره، منتبهتين لأهون إيماءاتي.

ترقبانني بدأب، وبالمثل تفعل مع عائلتي، عينان تتضاعفان نظراتها وحركاتها: تقتحماني من الباب، البساط، النافذة والسقف. أزواج عيون متعددة تقف في أماكن مختلفة في غرفة مستشفى الأمراض النفسية التي نقلت إليها: خضراوان على الدوام، براقتان، غير متناسقتين، غاية في التحديد غير أنهما متقابلتان، مثبتتان على أينما نظرت، حتى إن أغمضت عيناي. تحول ما كنت أخشاه وأنا طفلة منذ موت أبي إلى واقع ملموس. تفجر وجود البهيمة التي تتفحصني في حياتي، سيطرت على نفسي وحواسي، تتحكم بعقلي وتحجم إرادتي. عيناها الفاحصتان موجودتان في كل مكان، تتكاثران مثل فيروس خبيث، تغرقني بوجودها في كل مكان: أجدهما في ثنايات الفراش، على صينية الإفطار، غائصتين في كوب الماء، ذائبتين مع نقاط العلاج التي وصفها الطبيب، كيف لا يرونها جميعهم؟ هل كف بصرهم؟ هل نظرهم أعشي لدرجة ألا يرونها؟ ولأهرب منهم أغادر سرًّا المستشفى، أتجنب المرور بخدمة الملاحظة و أنطلق جريًا إلى محطة القطار الواقعة بتلك البلدة الكريهة في الضواحي، بمنازلها المصطفة، وشوارعها بالغة النظافة لحد القنوط، ولافتات معلقة تهدد بوجود كلاب شرسة، متوحشين مثل أصحابهم، أستقل القطار المتوجه إلى باريس، أجد نفسي في محطة «جاردي نورد» وبعد ذلك بسنوات حين قرأت كتابك، وصادفتني

عبارتك الملغزة التي تصفني فيها على هذا النحو: «الصرخة النافذة» للفتاة النافـرة التي تعبر صالة محطة القطـار، وتُشكل حولها فضاءً مقدسًـا لا يستطيع الفضوليـون اختراقه، فهم غربـاء عن هذيانها، انفصلـتُ عن إحداثيات الزمان والمـكان، ورأيت نفسي مجددًا في صالـة محطة القطار الشاسعة، التي تعـج بالأشخاص، تتربص بي عيون البهيمة المتضاعفة بشـكل لا نهائي، فيما أسعى لأشق طريقي وسط الجمـوع المحتشدة، يفرقها صوت مكبر الصوت، فأكثف في تلك الصرخة جل وحدتي وجزعي.

وعلـى الرغم من أنك لـم تحددني بالاسم، فإننـي عرفت أنني المقصـودة. غير ذات قيمة إن كنت أو لم تكن شاهد عيان للمشهد، ألم تكن فـي ذلك التاريخ محطة «لاجـار دي نورد» هى محطتك خلال درجات صعودك؟ كشفتني عين الخيال.

أعتقـد أن هاجس لقائنا أنقذ حياتي، وأتـاح لي التغلب على تلك الوحدة. لم يكن الفرار من دون جدوى، لقد عدت إلى المستشفى. وشيئًا فشيئًا بدأت عيون البهيمة تحل قبضتها، تخلت عن حصاري، ورفعت الحظر، ذابـت تدريجيًا في الجناح المعقم للمجاذيب الذي أرسلتنـي إليـه عائلتـي. ومـن دون أن أدرك يقينًـا، خمنـت أن شخصًـا ما قد التقط معنى الصرخة، وعثـر في تحديه على منطق ذاك المعنـى وحصانته. منذ هذه اللحظـة، شعرت بصوت داخلي

يناديني، صغير رقيق يخرج من أعماق صدري ويتركني معلقة، أتأمل مدى رسوخه داخلي واقترابه من نفسي، وفي الوقت نفسه فهو قصي، وعلى قدر مشقتي المبذولة، لم أتمكن من تملكه. لكنني شعرت أنني شفيت، وقادرة على مواجهة الموجود، والبعد عن عائلتي، وأن أتلمس حظي في أمريكا، فأتزوج وأنفصل، وأتابع دراستي الجامعية حتى اليوم الذي عرفتك فيه مصادفة، في إحدى الدعوات المملة لعشاء الأساتذة والخريجين في «مورنينجسايد دريف»، وتولدت لديّ قناعة - حتى قبل قراءة كتابك - بأنك مددت لي يد العون في أحلك لحظات المحنة والشقاء. ولحظة اختفائي في النهاية، عقب ارتحالي وسفري إلى البرزخ، أدركتني الراحة حين اكتشفت أنك لم تكن في المقبرة مثل الآخرين.

استمتعت روحي حينها بالشفافية، وحفرت بها أخيلة العالم، باستقلال تام عن العصور والمسافات. استمع إليّ جيدًا: شكّل نصك مستئنسًا بخبرتي المباشرة لحدس الروائيين والمتصوفة الذين أطلعتني عليهم. ألا ترى أن الأحلام التي لا تقدر على إدراكها سوى العين، قادرة على اختراق ما جرى، وما يجري، وما سوف يجري. فأية ملكة، فيما عدا الخيال، تحظى بموهبة لتشمل وتخلط الأمكنة والأزمنة، وتوجز الكون كله في رحم كتاب محظوظ؟

-25-

لا يرتبـط الأمـر بشريط فيديو السيدة ذات المظلـة، أو الشاشة التي تعرض لوحات «جوستابو دوري». يسمح الفراغ الحضري الذي تعبره بتتابع لا نهاية له؛ لأطلال قذائف وأخاديدها، واجهات مبـانٍ تزعزع توازنها، مـآذن مبتورة، بقايا حافـلات متفحمة، دبابات مهجورة بداخلها ذخيرتها، محطات وقود مشتعلة، مساكن جوفـاء فتحاتهـا سـوداء، بقايا النهـب وعربدة الدمـاء، وضحايا الإعـدام الجماعـي، تلفهم موجات هـواء يستحيـل تنفسه، رائحة عطنة لها مذاق مسكر لأجساد متحللة، وآلاف المدنيين المشدوهين لحظـة هروبهم، عيون جاحظة من أثر الهـول، جبهات اخترقتها الرصاصـات، وأياد متوترة تشير بإصبـع السبابة لاتهام المسئول غيـر المرئي عن هذه المذبحة. أتـرى تمت التضحية بهم كخنازير تجارب على مذبح التكنولوجيا الحربية الحديثة أم هو الثأر الأعمى للخاسر؟

لن تقدر أن تجيب بدقة بسبب موقع رؤيتك المهتز.

بالمثـل لا تعرف مـكان وجـودك أو كيف وصلـت إليه، قبل وصول جماعات ابن آوي وزحف قوات العدو. هؤلاء المنبوذون المجهولون الذين تجاهلهم دانتي، أهم أكراد، أم شيعة، فلسطينيون،

مرتدون، أم فارون من الجندية، جميعهم فريسة للرعب أم مجرد أبناء للأرض الخصبة لما بين النهرين، يستمسكون بغريزتهم في البقاء أحياءً، كونها الحقيقة الوحيدة الراسخة التي لا ريب فيها. أم لعلك وصلت إلى الدرك الأول من جهنم، سهل الزعابيب أو سجنها الذي يلتهم قاطنوه لحوم أجسادهم، وينهلون من دمائهم، بحسب رواية المسافرين؟

نثرت في الأرض بذور أشياء هجينة، خلفها شعب ضل طريقه خلال هجرته، حرمه التاريخ بقسوة من ضوء العدل: أوعية طهي، ألحفة، بطاطين، قطع ملابس من أزمنة شتى، مواقد غاز، براد بلا باب، أحذية أطفال، أحذية برقبة من قياسات وأشكال مختلفة، خوذات جنود، دمية مبتورة منزوع شعر رأسها، شاه كانت تجز ما يشبه العشب، مربوطة بحبل بيد صاحبها الصلبة المتيبسة. تجبرك قوة جاذبة أكثر سلطة من الرعب نفسه؛ لكي تتوقف وتفحصهم جثة جثة، الأجساد الملقاة على الأرصفة، وفي النواحي ومنعطفات الطريق، وفي تقاطعات المدينة الشبح، التي دكتها القنابل وأجهزت عليها، والطاغية؛ طفل صغير، حفر الفوسفور في وجهه أخاديد، جفناه شبه مصهورين، يتدليان كأنهما قصتا شعر، عسكريان متفحمان بفعل سلاح تحركه أشعة الليزر، يمكن التعرف عليهما من خلال حزام الخرطوش وخوذتيهما عديمتي

الفائـدة؛ جذع جثـة مبتورة الأطـراف مكسوة بالكامـل بالذباب. يعاتبـك حدس لا زال مضطربا لكنـه حثيث؛ ليدفعك أن تتوقف هنا وتدع طريقك.

هل ياتـرى يرغب في أن يجنبك الانحدار المؤلم إلى الدرجات السفلـى من الجحيم؛ حيـث يتدفق نهر كبريتي يغلـي، سكانه فقدوا عيونهـم، بينما تلتهم حيات ضخمة السالف ذكرهم. يتملكك الحزن ويرسـخ فـي أعماقـك، يوعز بظهـور وشيـك لأخيلة أكثـر قربًا وإيلامًا، نبش القبور والجروح الغائرة والندبات المستحيلة. تتقدم مرتعشًـا، علـى الرغم من قيظ الضباب ونتانـة الجثث، نحو شبح سيدة منبطحة علـى وجهها، سيدة أنيقة تتلفـح بمعطف فرو أنيق، على رأسها قبعة من طراز الثلاثينيات.

تطوقهـا هالة من النور الوضـاء ينتشر حولها من دون غيرها، فيميزها الناظر عما حولها للوهلة الأولى، تبدو كأنها ترسل رسالة خصتـك أنت وحدك بها. يجمد هاجس ما قـواك، يستبعد النصائح والتحذيـرات، يرسخ في نفسك بحتمية الافتقـار إلى الإيمان. من هي؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا لا تجرؤ على أن تدير الجثة لتكشف عن وجهها؟

أتخشـى ألا تعرفها بعد وقت طويل، علـى الرغم من صورها التـي تحتفـظ بهـا؟ أم تخشـى أن تعمـي بصـرك بجمـال محياها

واستدارة وجهها الممتلئ الذي أصبح كاللهب الحي؟ تحبس أنفاسك وتنحنـــي فوق حقيبة يدها التي ما زالــت تقبض عليها، وتتحقق من دقــة الذكرى الأليمة، بعيـدًا عن الرعب، جميــع هداياكم كما هي لــم تمس. أهي أم أشخاص بعينهم، لهــم مفاصل، أعصاب، دم، عمود فقري وعظام، أم هي رمــز وتجسد لجميع الأمهات اللاتي تفاجئـن بالقصف بينما يقمن بالتسوق فــي برشلونة، أو البصرة أو بغداد؟ ألم تتآمر على طيفها هذه الحقبة من الزمان؟ فأية شرارة تلك التــي غذت الكابوس الليلي وأعــادت الرؤيا الغليظة التي وجب أن تبقى دفينة في كثافة عمق الأرض؟

تغمضـ عينيـك ، مدعومًا بالسكينــة والهدوء ، تتجــول بخفة ، بمحاذاة الأرض ، فــي الطرق ، المدافــن ، والأضرحة. تكتلات المقابر التــي تجولت بها قبل سنوات مترسخـــة في جسدك ، خلال إقامة تشبعت وأثمرت تدريجيًا ، لم تنسها ولن تنساها أبدا .

حيــن كنت متلحفًــا بغطاء متهرئ ، مــا بين قبــر أجوف لرجل فارق الحياة منذ نصف قــرن مضى ، وفراش من القش يرقد عليه رجــل عجــوز ، عشت هنــاك جذبتـك وتخيلت مملكــة الأطياف ، تحــررت من هيئتـك المادية خــلال الحلم ، واتحـدت لوقت عابر بنخبـة الأرواح المارقـة المقيمين فــي «القرافــة» ، يتلاشون في قبورها ونواويسهــا السرية كلما أشرق شعاع يــوم جديد. تملكتك الخفة ، تنزلــق بخفة ونعومة من دون جهد فوق الدهاليز الصغيرة الوحيدة ، القباب المضلعة ، والمآذن الرشيقة ، تنبش أخيلة جولتك النهارية وذكرياتهــا؛ طرق يكسوها التــراب ، واجهات متهالكة ، شجيرات هزيلــة ، مخلفات ، أنوال بدائية ، أبــراج حمام ، حدائق ومناطــق للسكن . يكسو نــور القمر الآن المساكــن المطلية باللون الأخضر والترابي ، مزينـــة الأفنية بالزهور والآيات القرآنية على الموزاييك ، أوعية المياه وسعفات النخيل موضوعة فوق القبور .

انطفأت علامات الحياة الزائلة بالمدينة في المصابيح، القناديل ومصابيح الغاز. آوت إلى منازلها عائلات، وقطعان، طيور الحظيرة؛ لينعموا بالسلام وطراوته بعد سخونة الشمس والتراب وعناء اليوم. إنما هى ساعة السبات العميق، حين يخرج الموتى من أضرحتهم، ويتواصلون مع النائمين خلال خيالات التهجد الليلي.

يتحسس علية القوم الذين علقت في المقابر صورهم، يرتدون فيها المعاطف والطرابيش الحمراء، غفلة الحراس للاستراحة، فيشاركون بغم ظاهر في هذا المشهد الذي يغط في الانهيار والدمار المحتوم.

أتراك تحلق الساعة، متمسكًا بجناحي «إسرافيل» المهولين، مثل جناحي ديك السماء الأولى ورأسه، التي وصفها مؤرخو المعراج بأنها تصل إلى ما هو دون عرش الله؟

أم أنك تحيا نشوة الخفة، والدعوة الموحية بالخطر وبهجة انعدام الوزن؟ لا تسهر نفس واحدة للاستماع إلى نشرات الأخبار عن الحرب النظيفة، وآثار الأسلحة الذكية في مهماتها الجراحية بغرض التهدئة، إلا أن آثار الكرب المنتشرة تثير قلق المواطنين بمشاهد الموت والخراب.

مشاهد يكسوها الرماد والرقائق المشتعلة. هل هذه المرافق هي ما تزعج (أحمد) في حلمه بينما يحتضن زوجته، ويتنفس أنفاسًا متقطعة، لا يدرك وجودك الماكر بعد طول غياب؟ استنزافك لخصوصيته جعلك تتخيل سماع صوت المقرئ، يرتل السورة السابعة والستين في القرآن، في إحدى سرادقات الشوارع أعدها أقارب المتوفى لإحياء ذكرى الأربعين. تطير رابعة والبسطامي في سرب من منحدر الجبل شبه العمودي، وأبراج القلعة وقبابها. أتراك تحلم مثلهما، أم أنك تستمتع بنشوة النعيم بعد أن تطهرت وصرت شفيفًا؟ هل تجاوزت حدود الزمان والمكان بفضل الخيال، فتخلط ما بين الموجود وما يتم استدعاؤه بخفة من دون أن تلمس الأرض؟ وتشهد جنازة البسطامي في اللحظة التي يستمع فيها الحشد الذي تعلوه سحابة الطيور الخضراء إلى آذان الصلاة ينادي بها المؤذن، وفي هذه اللحظة الإلهية، يرفع الميت الراقد يده من الكفن مشيرًا إلى السماء، وفي اللحظة عينها، تطوق الظلال الشفافة قبر عاشقة الحب الإلهي، فتلمس أركانه بأطراف أصابعها، التي تمسح بها برقة على وجهها ثم تجثو إلى جانب القبر، تتحسس كساءه، وتهمهم بصلاة خليط ما بين الابتهال والتوسل.

وماذا بشأن المفارقات التاريخية وتعارض الخطط، هل ترجع إلى أداء الموتى خلال الأربعينية أم أنها امتداد لشمولية الظلال؟

تنتشي ويغمرك النعيم لرؤية جمال المقابر وسكونها، بواباتها الحديدية، الدرابزينات، المسلات الجنائزية، البيوت الصغيرة تزينها رسومات الكعبة والحج، وآثار كفوف مطبوعة بدماء خروف الضحية على الجدران. لقد عادت إلى جوارك، وبينما تشير إلى جسدك الراقد بباريس خلال لحظات الهجرة المذكورة قبل قليل، تهمس وقد احتوت في إيماءة واحدة الكائنات والأشياء الحاضرة في نصك، عمياء هي العين التي لا ترى ما الذي أنت بحارس له:

أخذ الصالون الصغير بمقاعده الوثيرة يمتلئ شيئًا فشيئًا في شكل نصف حلقة أمام التليفزيون، بجمهور من زبائن البار أو السائحين الجائلين، قبيل إذاعة الأخبار المتعلقة بوقف إطلاق النار، والنهاية الوشيكة للقتال.

توجد بين أناس غرباء عنك، محروم من قربها الحميم، ومن الرحالة السماويين الذين اعتادوا الالتفاف حولكما دائمًا.

تتابع الفواصل الإعلانية بتراتب، وفي النهاية تختتم بلحن البرنامج ومشاهده، ثم تظهر على الشاشة السيدة حاملة المظلة، ترتدي ثوبًا من الأورجانزا بنفسجيّ اللون، موشي بالدانتيلا وشرائط كبيرة، وتضع عقودًا زجاجية، وحليًّا أخرى، وقلادات، جوارب بيضاء وحذاء بكعب عال مزين من ناحية مشط القدم بأحجار وألماسات صناعية. وبعد أن أشارت بالتحية ناحية اليمين واليسار، جلست عند رأس الطاولة مثلثة الشكل، تصطف عليها الميكروفونات، ثم بدأت بتقديم المدعوين نجوم الجلسة، وهم من الأسماء اللامعة في الحياة الفكرية والأدبية، تمت دعوتهم لمشاهدة الظروف الراهنة على الهواء من خلال القمر الصناعي، ثم التعليق على الأحداث.

فيلسوف شعره طويل مموج يشبه جورج صاند.

عالـم نفسانـي له العديـد من الأعمـال المرجعيـة الأساسية في التخصص.

عالم في السياسة، متخصص في دراسات الكرملين، ثم تحول للتخصص في الدراسات الإسلامية.

ويا لها من مفاجأة.

هذا هو الشاب ذو الوجه الضامر، متدثرًا في جلباب رث، يضع طاقية عفريت، يدخن نارجيلة «الكيف» بينما يجلس القرفصاء عند باب الحمام.

بعد تتابع عـدة مشاهد يظهر فيها جنـود مبتسمون ومهندمون، مصحوبة بمواد توضيحية بأسهم تتحرك وأهداف تشير إليها أضواء تومض، وصـور ناعمة لقذائـف باليستية، دمـار يصيب نواحي بيضـاء نائيةً مجهولـةً، تعود السيـدة ذات المظلـة وتعطي الكلمة للمدعوين.

جـورج صانـد: لا توجـد حروب جميلـة، لكن هنـاك حروبا عادلة، هذه بحث عنها أصحابها بكل عند وجهالة! حشدهم البدائي، وغرامهـم بالطاغوت أخرجهم من التاريـخ، كأنهم بقايا منصهرة بلا شكل أو هوية.

المحلل النفساني: ترتكز هويتهم على شبح سري يشكل أصلاً رمزيًا، نشيط بقدر ما هو كامن في اللاوعي. هو الحلم بالأمة الواحدة - الأم، اللغة، الدين، الأرض - متماثلة ونقية من دون تدخل «الآخر»، يفترض في نهاية الأمر غياب الأب وتسامي زنى المحارم.

عالم السياسة: ولم ينته الأمر بعد! من يضمن لنا أنه في المستقبل لن يظهر عبقري آخر؛ يخصص موارده البترولية أو ما شابه ليضرب بضربته في المجال الكيميائي، علم الجراثيم والأسلحة النووية، قبل أن يغزو جيرانه، ويهدد الغرب بالإرهاب، ووفقًا لوسائله، بالدمار الشامل أيضًا؟ على الرغم من أن هذا الافتراض غير محتمل على المدى القريب، فليس من الخيال أن يقع على المدى البعيد.

يظهر الشاب بجلبابه وطاقية العفريت

يـــا عبـــــــــاد اللـــــه، غيثوني

ذهول، سعال، أصوات احتجاجات، سباب؛ وإذا كان مجرد معتوه، فما هذا الهراء الذي يتلفظ به بينما يسير؟ ألا يوجد من يترجم هذه الرطانة؟ لماذا لم يحضروا شخصًا أكثر لياقة؟ أم أن مواطنيه جميعهم، لا يقلون عنه جلافةً؟

يضـع جورج صانـد والمحلل النفسي وعالـم السياسة نظريات جديـدة بشأن عقدة أوديب، الافتقار إلى النضج، التحجر، مرض جنـون العظمة، ونرجسية المنوميـن مغنطيسيًّا، لكن لا أحد يهتم: يتحرك الجمهور من القول للفعل، ويبدأ في قذف الطماطم والبيض الفاسد صوب الشاب «المورو» العربي صاحب الجلباب.

تجـذب السيـدة ذات المظلـة من حقيبـة يدها مبسـم سيجار من العنبـر، وتضع فيـه سيجـارة فليبينية وتشعلها بولاعـة من طراز «رونسون»، ثم تزفر سحابة دخانية لتسترخي وسط هذا الصخب العام.

علـى ما يبدو، فلم تعـد تظهر على الشاشة، فتسيـر وتقف إلى جوارك تمور غضبًا للإهانة التي لحقت بكرامتها.

مـع التهاني، تقول لك: ألا تشعر بالخجـل من ابتعادك عن هذا الإجمـاع الخلقي البديـع الذي يتأسـس عليه حاليًا النظـام الدولي الجديد؟

-28-

وماذا عن خلق النص الروائي، أليس مثله مثل الأربعينية؟

ألا يضطر الكاتب إلى الانعزال عن العالم في المرحلة المبهمة التي تسبق تكوينها؟ ألا يضطر إلى أن يحيط نفسه ومادته الروائية الخام بحبل صحي ذي حواجز للحماية؟ ألا تتطلب قدرة الكتابة التي تسبب العدوى - ويكون ضحيتها الأولى الكاتب نفسه قبل أن يتحول إلى آداة - أن ينسحب إلى عزلة شبيهة بعزلة نزلاء المستشفى، أو الرهبان الملبوسين بحضور الرب؟

تتطلب مغامرته الحمقاء جمع عناصر نصه وتنظيمها في إطار غير محدد ومبهم، وأن ينشئ بين علاقاتها خيطًا مثل خيوط العنكبوت، ينسج شبكة من المعاني تتجاوز الزمان والمكان، تجاهل قوانين المعقولية، نبذ الأفكار البالية عن الشخوص والحبكة، وإلغاء الحدود ما بين الواقع والحلم، قلقلة القارئ عن طريق تراكب مستويات التأويل وشهادات الأصوات الموثقة، استلاب ملكية الأحداث التاريخية وإشعالها وقودًا لخدمة المشروع «النص»، الحياة والموت والبعث لك وللآخرين.

ألا يتطلب تكثيف كل ذلك في موقع ذهني تحضيره بعناية؛ ليحتضن المرض المعدي ويحول دون انتشاره قبل الأوان؟

فمثـل جميـع الأوبئة، فـإن الوباء الـذي أزهر فـي خلاصة نبت الروائـي، يبحث بعـد الأربعينية عـن امتداده الطبيعـي في شكل القـارئ المتلقي لدعواه المعدية الخصبة. ومنذ أن يتولى هذا مقاليد مخاطر المغامرة، يعيش هو نفسـه الأربعينية، معزولاً عن العالم في فقاعتـه الخاصة، منهمكًا فـي متعة العدوى الملوثـة. أربعينية الكاتب، أربعينية القارئ، أربعينية الكتاب، لا غنى عنها جميعًا في الأثر الفاعل لتحفيز وتحويل الكلمـة المكتوبة. وعين الخيال هذي في محيط الايمان بالآخرة، ألم تصطبغ بعلمانية ما، على الأرجح مردها الروائيون أنفسهم، محط إعجابها.

-29-

نصحتـه زوجتـه أن يستقل الحافلة رقـم (93) عند بورت سان مارتيـن، قالت لـه: ستتـركك عند المـكان بالضبـط، لكن ولعه الشديد بالمتـرو كان أكثر قوة، من دون أن يعير التفاتًا لمضايقات تغيير الاتجاهات. غاصـ في النفق الأرضي الحضري من الفتحة الأقرب، اكتشـف بسعادة أن الباب الأتوماتيكي الصغير المتحرك آليًـا انفتـح أمامه من دون الحاجـة إلى بطاقة، كأنهـا دفعت مسبقًا باحترام من مجهول خارق.

بدا لـه الحدث بشـرى للخير، وبينمـا يقطع الرحلـة في عربة مزدحمـة، احتضن حقيبـة أوراقه وسجلاتـه؛ ليبرهن على صدقه ونيتـه السليمة خـلال استجـواب المحققين لـه. لم تنطـوِ الأسئلة الثلاثة المطبوعة على الآلة الكاتبة على صعوبات كثيرة، لكن بعد ساعـات من تلقي الرسالة الغامضة، عثر على سؤال رابع مكتوب بحبـر سري ثـم استبانت حروفه: «ما نوع الكتـاب الذي تقومون بكتابته، وما الدور الذي نلعبه فيـه؟». كان من المستحيل الإجابة عـن السؤال بشكل كتابي، فقـرر أن يلجأ إلى خيار كان مقررًا في صحيفة الشروط، ألا هو تقديم عرض شفهيّ للموضوع في مكتب محكمـة الحسابـات. ولكيلا يستسلـم للتثبيط ويحافـظ على رباطة جأشه، اعتبر الأمر بمثابة شرك ينصبه له «منكر»، كخطة لاختبار يقظة ذهنه وسخريته الفطرية.

وكما شـرح لها قبل رحلة العبـور ، فإن تجربتـه القصيرة مع منكر تكذب ، بشكل قاطع ، ما يشاع عنه من أساطير بشأن صرامته وخططه السادية المزعومة.

(لم تكن الأمور مع زوجته بمثل ذاك الوضوح)

تقـع المحكمة بالقـرب من المحطـة، توجه إليها سيـرًا منبسط الأساريـر ، ممسكًا بحقيبة الأوراق التـي تضم القرائن والوثائق ، هـدأ روعـه بفعل الأجـواء الطبيعية مـن حوله والمظهـر العادي للأشخاصـ الذيـن يقصدونه لسبـب أو لآخر . صعـد السلالم من دون أن يتـرك نفسـه للانبهار بعظمة الأعمـدة المنذرة التي تزين الواجهة، ولج القاعة الشاسعة، يحتشد بها الجمهور كالنمل، انتظر دوره في طابور أمـام نافذة الاستعلامات الصغيرة، وتسلم بطاقة كارتونية صغيرة تشير إلى الطابق والممر ورقم مكتب الممتحنين ، وبطاقة أخرى ذات لون مختلف يظهر فيها رقمه المحدد. اصطحبه برقة مرشد لـه حاجبان ولحية شيطان ، من هـذا المكان المزدحم المزعج إلى الطوابق العليا ، وللوهلة الأولى تبدو مهجورة يسودها الصمت.

أشـار إلـى مقعد في طرف القاعـة؛ ليجلس فيـه وطلب منه أن ينتظـره هنـاك . وقـال: حينمـا يستعـدون سيبلغونـك . جلس بعد أن تمتـم بكلمـات الشكر ، واضعًا محفظته فوق ركبتيـه، مستغلاً

الانتظار ليستحضر إجاباته بشكل طبيعي. ولم يقلقه الانتظار؛ علم أن الممتحنين لن يمنحوه وقتًا إضافيًّا، وفي المقابل لن يقضيا في الأمر بسرعة على الرغم من المجهود الذي يبذلونه. من وقت لآخر، كان ينفتح باب في الردهة، ويطل منه بشكل خاطف رأس امرأة للتأكد من وجوده، للحظة تلقي عليه نظرة محايدة وتختفي. وبطول وقت الانتظار، نهض ليحرك ساقيه ويسير بضع خطوات. ظل الممر مهجورًا، لكن خلف الأبواب الصلبة المصنوعة من خشب البلوط، سمعت حركات الموظفين، والمكالمات التليفونية وصوت النقر على ماكينات الكتابة. ومن أبواب أخرى تردد صدى صوت خافت لأسئلة عبر مكبرات الصوت، تتقطعها شكوى وتأوهات. تأكد من أن أحدًا لا يراه وأرهف سمعه عند باب مزينة صفحته برسومات لنساء ورجال عرايا، بفكي كلب، وأذن ماعز، وحوافر ثور، وصوف خراف؛ بالرغم من بعدهم، كانت تصل إليه أصوات صرخات وأسى، ولفحات رياح مشئومة. وفي المكتب المجاور علقت لافتة بجميع اللغات تحذر من أن هذا المكتب مثل مكاتب الجمرك، يضطلع بتسجيل جملة ذنوب الأرواح المعذبة وحفظها؛ ذلك حيث «يحبس التائبين البرد الزمهرير». إذا لم تخنه ذاكرته، ألا ينتمي هذا البيت إلى النشيد الواحد والثلاثين من «الكوميديا الإلهية»؟ وحين أوشك

علـى مواربة البـاب والتجسس على مـا يحدث بالداخـل، أجبره الصرير الصادر عن حركة المزلاج على التراجع والعودة سريعًا إلـى المقعد الذي حدده له الدليل. وقفـت أمامه سيدة معتلة المزاج تضع نظـارة. قالت: رقمك. قدم إليها البطاقـة وفتح الحقيبة على الفور ليظهر لها الشهادة الطبيـة ونتائج التحليل. بإمكان حضرتك أن ترى أن معدل الإخراج وكثافته طبيعيين، ولا أثر لأي اختلال أو إصابـة طفيليـة. وبالمثل لا أثـر لأي زلال، يكشف عن وجود خلل سرطاني أو التهاب ما بالغشاء المعوي المخاطي. تنحنح؛ فيما يتعلـق بالسؤال السابق، فإنه لو سمحت لي باتباع ترتيب مختلف، فبعـد أن فكـرت كثيرًا واستدعيـت ذكريات فصـول الصيف التي قضيتها مع عائلتـي، أستطيع الجزم بأنني مارسـت العادة السرية الأولى في سـن الثانية عشرة، أي في عام 1943، ربما كان ذلك في شهـر يوليو ... إلا أن وجه الموظفة نافـذ الصبر والصارم، جعله يكف عن عرض حديثه:

أعتقـد أن الدكتـور نكيـر والدكتـور منكر يفضـلان أن أدون شهادتي بصفة شخصية.

فُتحـت جميع أبـواب الممر مـن دون مقدمـات، وبرزت من خلالها عشرات الرؤوس المتطابقة، بدت أصغر فأصغر طبقًا لبعد المسافة، مثل بهو المرايا في المهرجانات.

(أو مثل مشهد من فيلم « سيدة من شنغهاي» مثلما قالت زوجتك، إلا أنك لم تشعر حين دخلت الحجرة لتلقي عليك التحية، وقد قرأت الفقرة الأخيرة، من خلف ظهرك).

يقومون بفحصك من قمة رأسك إلى إخمص قدميك، بعين محقق ونظرة منتقدة.

صرخت الموظفة؛ ومن أخبرك أن نكيرا ومنكرا يعملان هنا؟ على الرغم من الأعداد الهائلة للمهاجرين التي نستقبلها هنا لسوء الحظ، فإن قدراتها لم تتمكن قط من دواخل حدودنا! وفيما يتعلق ببيانات سيادتك فهى لا تظهر في أي من أجهزة الكمبيوتر لدينا، وليس في إمكاننا أن نتحمل مسئولية ملفك، بالرغم من أصلك الكاثوليكي الرسولي الروحاني الأكيد. الأفضل أن تستقل الطائرة وتتجه مباشرة إلى القاهرة.

وفي المطار، ستجد من يهتم بمتابعة أوراقك. استقل «تاكسي» على نفقتك، وتوجه إلى المقابر الجنوبية: وستجدهما ليلاً بأحد الأضرحة أو في إحدى زوايا «مدينة الموتى».

-30-

تركت الأربعينيــة الخلقية للحرب أثرها علــى حياته، فطردت النــوم من عينيه بضــراوة، وقودت دورة مجــرى أيامه بالأخيلة الدمويــة وراء الأحــلام. تكثــف الصمت غيــر المعتاد فــي مدينة «الرجــال المقدسين السبعــة» بحسبه مرت الأيــام وتعاظم الوعي بالكارثــة، التــي ترسخت في نفوســ السكان الذيــن كان يعبر بهم خلال زياراتــه المتقطعة إلى الميــدان. الجولــة العرضية للمشهد العتيــق للضوء جعلته يتشبــث بأمل الاستمراريــة الوجودية، التي اهتــزت بعنف وكانت محل اختبار من قبــل العدوان المنتشر الذي اتخذه هدفًا له.

في مرحلــة زمنية ما تركــز اهتمامه على «صــاروخ» لم يكن الشبــاب قد ازدراه بعد، ولــم يتركه في وضع صعب وقاس عندما تجذبــه بوصلة الرغبــة، بحث ووجد فــي ذاك الصاروخ، وجهة الشمال لجولاته وصولاته.

خفــة ظلــه وروح الدعابة اللتان يتمتــع بهما، وأيضًــا تواطؤه الماكــر بعيــدًا عن العرضــ اليومي فــي «الحلقــة» اختصرت في فكرته عن السعادة. وقف في الميدان، وسط بهجته، معجبًا بهيئته

وغطرسته، رأسه الحليـق، مؤخرة عنقه المتينة، أسنانه الذهبية، طلاقـة اللســان، استعراض القـوة، ومتانة الفحـل الانكشاري. تراجـع كل هذا إلى الوراء، بعيدًا جدًّا إلـى الوراء، مترجلاً بفعل خفة الزمن الذي يماثل هروب أيل سريع.

والآن لم يعد يلتقي بغير الأشباح، مثلها مثله انبثقت عن الضباب، وجوه تكسوها صرامة بالغة، مؤمنـون مخلصون في انتظار نداء المؤذن، باعة يجلسون على عتبات البازارات المهجورة، عجائز وشباب ملتصقة أسماعهم بالمذياع. اختفى السائحون في الأسواق: الشرفات البانوراميـة لفندقي «جلاسيــى» و«أوتيل دي فرانس» فارغة تمامًا.

تأمـل بعمق رجـلاً محكومًا عليه بالإعـدام، الأرداف العامرة لسلـة الجبال المكســوة بالثلج، تتلألأ ضياءً، تطـل من خلف سماء صافية. حيا بإيماءة من رأسه الســادة الجالسين بالمقهى، ثم بحث عـن الاقتراب المطمئن من صوفي الحلقـة الأخير «الشرقاوي». وجده في مكانه المعتاد، على سجادته إلى جوار الحمائم المروضة، وطواقيه المطرزة بقواقع الحاج، الجلباب المرتق البائس، ورأسه الأشعث كثيف الشعر، محيا عابس لكنه مشبع بعذوبة سرية. جلس إلـى جواره مـن دون أن يستأذن منه، منتبهًا إلـى ترتيل صلواته

والأدعيـة الحارة الصادقة للحب والرحمــة. هل هناك بين منطق الحــرب ومنطــق المــال إمكانية وإن كانــت طفيفة لهـذه الكلمات الأساسية ؟ تعرف إليه الشيخ الكهل فتوقف عن ابتهالاته ليقبله.

تسرب إلى جسده شعور بالأمان والصداقة، كأنه مسكن بعد ألم حاد وعصي. بدا أن هدوء «الشرقاوي» ولطفه ينتشران في الحلقة ويكسوان دائرة المشاهدين بجمال معنوي رقيق.

حيـن لمحهـا في هيئتهـا الشفافة، وسـط الحلقة، لـم يشعر بأية دهشــة، فقط السعــادة لمعاودة رؤيتها، في مدينــة، دون شك في ذلك. ارتدت قميصًـا بسيطًا وسروالاً وبدا عليهـا السكون، تمامًا مثلما كانــا ينتظران لحظة الخروج من القاعــة، منهمكة في قراءة «كيبيدو»، بين هـواة الموسيقى، من بورتوريكو والزنوج، على العشــب تنعكس عليه أشعة الشمس فــي «واشنطن اسكوير» بجوار الجامعة.

جلسا في حجرة المعيشـــة يعلقان على أحداث الحرب الأخيرة- غلفهمـا صمت غير معتـاد لمدينة بدت بعد الأخبـار السريعة كأنها خاضعة من تلقـاء نفسها لرعب حظر التجول، إلى أن رن الهاتف فجأة. رفعت زوجته السماعة وجعلتها لصيقة أذنها. قالت: لا بد أن المكالمة خارجيــة، فالصوت غريب جدًّا. جذب هو بدوره نسخته ذات الحواشـــي (دانتي وأخـذ يقرأ بعد عدد مـن المرات لا حصر لها وصــف حلقة الجحيم التاسعة؛ محــاولاً استقراء توافقات جديدة بينهـا وبين «سقر» و« تارا» قصر الشيطان ومحل جيوشه بحسب النسخ الأولي من المعراج. قالت زوجته بعد برهة: نعم، إنه هنا. أعطتــه السماعة وهــى تغطيها بكفها وتقول: إنــه اتصال من مكتب السيديـن «نانيتـر» و«مونار»، لـم أفهمهما جيـدًّا، على أي حال إنهـا مكالمة من مصر. شعر بقلبه ينتفضـ، واحتاج لدقائق ليملك أعصابــه، تنحنـح قبل أن يقـرر الحديث. رد صـوت نسائي حاد وصارخ: أهلاً، دقيقة مـن فضلك، لا تذهب. مضت برهة زمنية كأنهـا بلا نهاية يصاحبها صوت احتكاك معدني، وصرير وفقرات من عبـارات باللغتين العربيــة والإنجليزية. يتـردد الصوت بين لحظة وأخرى، لا تغلق الخط، نحن نبحث عن صاحب الاتصال. وينقطع الصوت من جديد. حبـس أنفاسه وواصل الترقب، اعتقد

أنــه يسمع صــوت انفجــارات غاضبة مبعثهــا الريــاح، أصوات مبتهلــة، تأوهات بشرية، انفجارات هائلــة لمحركات. لاحظ؛ أنه على الرغــم من ابتعاد صــوت عاملة السنتــرال شيئًــا فشيئًا، فإن أصوات الضجيج والصرخات تحتدم وتكتسب قربًا يثير القلق. بدا كأن السماء تمطــر ألسنة من اللهب، وأن الرمال تشتعل مثل مواد الحريــق، هل كانــت عاملة السنترال تعبر عــن نفسها بهذا الشكل؟ أو أنهــم أوصلوه عن طريق الخطأ بأفران عالية وحاملات للأثقال فــي قلب مصنع للصلب؟ أو أن فضاء يوم القيامة منتصب برافعات للهدم؟ صرخ: يا آنسة. لكنه لم يستقبل سوى أصوات هائلة صادرة عن المطــارق والمثاقب الآلية تدك الأنقاضــ. وهذه الآيات التي وصلت إلى مسامعه، هل صــدرت عن أجساد مدفونة عاجزة عن نفسها، وسط الغبــار وقعقعة الماكينــات الضروس؟ ضاع البلاغ الآلي وسط هذا الخليط المفــزع من العواء والتوسلات والنحيب. ما الذي يجب فعله؟ قطع الاتصال؟ ويواجه بعدها خطر إهانته لهيبة من وكرامته يختبرونه فيتحولون ضده؟

فلربما يسعيان إلى إخضاعه لهذا الامتحان حتى يتحققا من مدى صبره واحترامه لمكانتيهما.

بــددت شكوكه قهقهة عالية تردد صداها، كأنه صادر من كهف أو نفــق عميق. من القادر أن يضحك، علــى هذا النحو، سواهما؟

تأكـد من أنهما في الطرف الآخـر من الخط، جعله هذا يشعر بحنو عميـق. تساءل في سعـادة: من منهمـا سيبدأ في السـؤال؟ إلا أن المحادثـة انقطعت مـن دون مقدمات. مكث لبضع ثـوان، أسيرًا للإحباط، ثـم صرخ بكل ما أوتي من قوة: يـا آنسة، لو سمحت، لقـد انقطع الاتصال، هل تسمعيني؟ بيد أنـه لم يسمع سوى صوت المجيب الآلـي، الذي أخذ يردد بالعربية مـن دون توقف: بسبب انشغـال جميع الخطـوط نأسف لعـدم استقبال مكالمتـك، الرجاء الاتصال في وقت لاحق.

انحرف عن الطريق المستقيم الذي تخلص فيه من نعليه؛ ليصل إلى الأفـلاك المضيئة التي وصفها « ابن عربــي» ، تخيل أنه ولج داخل مشهد لأرض سفلية، بـؤر مكسوة بنباتات متشابكة معروفة في بلاده باسم « الجندرة» . لمح عن يمينه في مجال السماء الأولى مـلاكًا نصفه الأعلــى ثلج والسفلى نــار ، يدعو فــي أناشيده الخلق كافة، ســواء كانت أجسادهم رقيقة أو بدينة ، ليصهر عطف قلوبهم في جسم واحد ، مثلما في جسده؛ حيث يتحد الثلج بالنار بالرغم من طبيعتهمــا المتناقضة. أخذ يحصي العدد القليــل من المسافرين إلى الطريق المستقيم ، يبتعــدون شيئًا فشيئًا نحو صراط النور: عرض عليهم أحدهم أكوابًا من العسل والخمر واللبن لتروي ظمأهم ، غير أنهــم اقتداءً بالنبي ، تخيــروا اللبن الحليب بامتيــاز . إلا أن عقبات الطريق المتموج الوعر ، تحيط بها أسوار الشوك غارقة في ظلام اصطناعــي ، كانت تجبرهــم على المضي قدمًا بحــذر بالغ ، خشية السقوط أو الانغماس في إحدى الآبار الجانبية ، التي تعج بالثعابين والحشرات .

بينمــا تابعت هى فريق الحجاج إلــى درب النور ، فأومأت إليه بإشارة أن يعود أدراجــه . بيد أنه ، لسوء الحظ ، لم تطاوعه قدماه مثلما فــي رؤيا السائريــن «لابن عربي» في «سّلــي» . حينئذ لمح

السيـدة ذات المظلة، ترتـدي رداءً رقيقًا من القطن بنفسجي اللون موشـى بالدانتيلا والشرائـط الكبيرة، تتحلى بعقـود من الخرز، وميداليات، وأحجار كريمة، وجوارب بيضاء، وحذاء ذي كعب عالٍ مرصع بمجموعة من الأحجار والماسات الزجاجية الزائفة.

كانت تدخن سيجارة مثبتة في مبسم، تحرك مروحتها بغضب، كأنها مختنقة من الحر القائظ.

Bonjour l'ami, ne soyez pas trop pressé! La route est trés longue et fatigante. Vous ne voulez pas boire un verre avec moi?(5)

(أتظهر مرة أخـرى هنا؟ ألم يتركها بصحبـة المتخصصين في دراسات الإسلام خلال الفقرة التليفزيونية؟)

Hep jeune homme! Si me je permets de vous apeler comme ca en depit du fait que vous n'ayez plus vingt ans c'est parce que vous conservez le charm et l'espirt de la jeunesse, sa seduction!

J'aimerais pouvoir parler avec vous dans un

(5) لا داعي للاستعجال، فالطريق طويل ومرهق، ألا تريد أن تشرب كأسا معي؟ (المترجمة)

endroit plus intime …[6]

تناسبت عيناها الجاحظتان الزرقاء اللون ، المحاطتان بحاجبين اصطناعيين وتجاعيد غائرة مع فمها الشره النهم ، وأيضًا طرف لسانها المتعرج وخلجات امرأة وقحة داهمتها السنون على حين غرة .

Je connais un motel pres d'ici.

Chambres tout confort, boissons, lumiere indirecte, metals aquatique, videos porno…[7]

وغمزته بعينها بحركة تشبه الكاميرا بين لقطة وأخرى .

Venez, Je vous prends par le bras! Il n'ya rien de meilleur au monde qu' une bonne partie de Jambes en l'aire avec une experte comme moi![8]

ماذا عن هيئة وجهها الشبيهة بالعرائس المتحركة ، هل ستمتد؟ أبعد وجهها عنه بصفعة من يده ، واستيقظ في هذه اللحظة عينها .

---

(6) ها.. أيها الشاب اسمح لي أن أناديك هكذا رغم أنك لم تعد في العشرين من عمرك، لأنك محتفظ بروح الشباب وإغوائه! (المترجمة)

(7) أعرف فندقا صغيرا بالقرب من هنا؛ حجرات مريحة ومشروبات وإضاءة خافتة، ومرتبة مائية وفيديوهات إباحية. (المترجمة)

(8) تعال، سآخذك من ذراعك! فلا شيء أفضل في العالم من جولة ترفع فيها ساقيك مع خبيرة مثلي. (المترجمة)

كنـت في منزلك بباريـس، ترقد بجانب زوجتـك، منهمكًا في الكتـاب الـذي أنت بصدد تأليفـه، وفيما أنت في غفـوة، ظهر لك شـاب متين البنية طويل، صدره قوي عريض، أعضاؤه مشدودة رشيقة. يلمع جلده بوميض فوسفوري، فأدركت حين رأيت رقته وخفته، أنـه الشخص نفسه الـذي التقيت به فـي «الحمام». قال: انهضـ، ضع ملابسـك، واتبعني. أطعت أمـره - متعمدًا أن تطأ الأرض بخفة، وتبعته إلى المكتب. هناك، أشار الشاب المجهول بإصبعه إلى الطاولة التي ستعمل عليها، وأمرك أن تجلس. لمحت بيـن الملفات رزم الأوراق الهولندية الفاخرة ريشة شفافة، طويلة وعريضة، تضاهي في طولها مسيرة ليلة كاملة على الأقل. أمره: امسـك بهـا وابدأ فـي الكتابة مـن دون توقف حين آمـرك بذلك. أطعتـه، يملـؤك الرعب والإجـلال، وبـدأ يملي عليـك بصوت ثابت، محددًا النقاط، الفصلات، الأقواس، الشرطتين، علامات الاستفهام والفواصل البيضاء، والـ32 فصلاً التي تشكل هذا الكتاب حتى هذه اللحظة.

كان الفتى يرتفع في المكان، ويقترب منك بالسرعة نفسها التي ينطلـق بها من الأرض للهواء، متكئًا على بساط غير مرئي. على الرغـم من استغراقك فـي مهمة الكتابة، فقد لاحظـت جسده شفيفًا

فريـدًا: فكنت قـادرًا على رؤيـة قلبه المضـيء، ونخاع عظامه، مثـل الخيط الأبيض داخل مقبض من الكريستال. حتى إنك خمنت أفـكاره - مثلما قرأ هو أفـكارك - إلى الدرجة التي كنت تسبق فيها ما يمليك، فتستبق الجملة التي يوشك أن يمليها عليك. كانت المهمة شاقة، لكنك لم تشعر بأي تعـب. كان دنوه منك والشذى المنبعث منه يغرسان في نفسك إحساسًا بالرقة، النداوة والأمان.

ظللـت طـوال الليل تؤلـف الكتاب فـي حالة مبهجـة ومتأججة فـي الوقت نفسـه. وحين شقشق الفجر، حيـن أضفى شعاع الفجر بصيصه على الأسقـف الأردوازية، ودعك رسولـك بإيماءة من رأسـه وتبخر في الهواء مثل إحدى شخصيات شهرزاد في مخادع الخليفة العباسي.

رجعـت إلى غرفتك فوجدت زوجتك نائمـة في وضع جنيني، غير أنهـا استيقظت حين تسللت إلى جوارهـا، وسألتك عن مبعث تهيجك واغتباطك. فحكيت لها ما جرى. لم تصدق ما سمعته منك، ونصحتـك أن ترقد وتستريح لبضع ساعات حتى تعوض سهرك. لكنك رغبت في الاتصال بالصديق الذي يكتب نصوصك على الآلة الكاتبة، وتسلم له مخطوطك الذي أملاه عليك الملاك.

صاحت: هل أنت مجنون؟ سيعتبرك معتوهًا ويضحك منك! من سيعتقد أنـك ألفت الكتاب خلال جلسة واحدة فـي ليلة وحسب؟ ألا

تعتقد أنه سيخبرك أن ما تحكيه ليس إلا ترهات وتخاريف؟ ولتثبت لها أنك لم تكن تحت تأثير حلم، ذهبت إلى مكتبك وأحضرت الدليل لتريها إياه. حينئذ فقط وقعت في حيرة، مثل التي تملكت ابن عربي حسب اعترافه، حين اكتشفت اختفاء الريشة المتألقة وبقاء الـ32 فصلاً مكتوبة على الماكينة على حالها.

أما ما قمت بإضافته فلم يكن غير مواءمة نصية من كتاب «المعراج» الذي أمر بترجمته الملك ألفونسو العاشر الحكيم، الذي استخدمه دانتي ليؤلف كتاب «الكوميديا الإلهية».

بعد ذلك ، بعد فظاعة ما حدث ، أخذ يبحث شاخصًا إلى الماضي ، بمفرده في البداية ثم بصحبة زوجته ، يرصد العلامات المشيرة إلى وداع وشيك وبوادر الهجرة. يتذكرها بينما؛ هي جالسة إلى جوار الطاولة المنخفضة في المكتب القديم ، وقد ارتسمت على وجهها الابتسامة الواثقة نفسها في الصورة التي يتأملها ، وهي تدخن سجائر «الجاولويسيس بلوز» ، أو بينما تطفئ السيجارة بعناية في المرمدة الافتراضية.

كانا يتحدثان عن كتاب «الكوميديا الإلهية» وعلاقته بالتصوف الإسلامي. أخذت تقرأ - بينما هي معلقة بحساب عكسي لا يرحم لبعض نبضات القلب القصيرة الهشة - «وهي لا تدري» - قرأت منتشية شعر « ابن عربي»:

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورة فمرعًى لغزلان وديرًا لرهبان

وبيتًا لأصنام وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّي توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

فإذا كان غطاء الرحمة يشمل كل ما هو مخلوق ، بما في ذلك الأحجار الجماد نفسها- وهي جامعة مثل غيرها- ويعظمون الوجود ، ألم يمزق «ابن عربى» حجب «دانتى» وحدوده في

رؤيتــه لما وراء القبــور؟ كانت تنظر عبر النافــذة المواربة تتطلع إلــى الأسطــح الأردواز، وإلى خليــط السحب المتنوعــة الملونة بأشعة الشمس، تعتريها عاطفة لم يفسرها هو نفسه. على نحو جيد، منهمــكًا بشكل دائم في البعد الأدبي الصــرف لدردشتهما. انطلقت حينئذ تتحدث بهدوء عن عنف العالم. لم تقصد عنف الكوكب الذي يعيشــان عليه، بــل الكون الشاسع بلا حــدود؛ كواكب نارية تبعث أشعــة قاتلة، نجومــا ميتة وبــاردة، أجراما تبــث عناصر مشعة، تسبب إشعاعات ذات طاقة هائلة غير قابلة للتفسير، كتلة من السديم الحلزونى للمجرات، وثقوباً سوداء تشد جاذبيتها إلى قلب الأجرام السماوية القريبة. عنف هائل وحشي لا مثيل له ينتج عن نجوم بعيدة عــن مجراتنا الصغيــرة بملايين السنوات الضوئيــة، فتشعل جزءًا طفيفًــا من طاقتها في أثناء وجودها المؤقــت لتتلاشى إثر انفجار لا يمكن تخيل أبعاده، فتسبب صدمات وحشية، وفيضاً من الأشعات ذات قــوة ساحقــة، ومعدلات سرعات تسبــب الغثيان، وكوارث متواليــة في عالــم الضوضاء والغضــب، هذا العالــم المترسخ في الفوضى، الدعوى، الالتهام، اللقــاء الأعمى للقوى المتعارضة، كل مــا وصفــه «روخاس» في عملــه «لاثيليستينــا». أتذكر ذلك؟

توقفت عن الحديث. وجال في الهواء سؤال لم تستطع صياغته؛

أمــن الممكن أن توجد ذرة مــن الحب والطيبة في فلك لا حدود للإبــادة والرعب فيه؟ صمــت كلاهما، وأخذا يتأمــلان تشكيلات

السحب غريبة التكوين المتوعدة في كتلتها السوداء المحكمة. وأخيرًا، قالت بينما تترك مجلسها: سوف تمطر.

(أترى هل ترك لها «الدليل الروحي» لمولينوس، ثم دعاها إلى العشاء في اليوم التالي؟)

أجابت زوجته: لا، بل كان ذلك في اليوم نفسه. قضيتما الأمسية تراجعان الترجمات، وطلبت منها البقاء معنا. أذكر أنها كانت ترتدي كنزة صوفية، وبنطالاً جينزاً، والسلسلة الذهبية التي تظهر بها في الصورة.

هل كان في سلوكها وحديثها شيء ما يجذب الانتباه؟

بحثا واستحثا ذاكرتيهما بشأن تلك الليلة، والحديث مع المدعوين الآخرين، والإشارات الأدبية والسينمائية، من دون ملاحظة أن ثمة وجود غير مرئي كان يترصد لهما من الخلف، حاضرًا في المشهد، قبل أن يتملك جسدها ويكلل هامتها دائمًا بهالة الشباب الغض الدائم أمام أعين أصدقائها.

(لم يكن هناك ما يدعو إلى التنبؤ بهذه النهاية المباغتة، أو إلى الخطوة الوشيكة نحو عالم الخفة).

بينما تودعك طلبت منك كتابًا، وذهبت لتبحث عنه في الاستوديو.

(كانت زوجتك على حق: في ذلك الوقت أعرتها «الدليل» وقبلتها في وجنتيها أمام باب المصعد).

وتحـررت أخيرًا من مضايقة السيـدة ذات المظلة، فتتمكن من التجول ملء ذراعيك، فتطوف فـي الفضاءات السماوية الرحبة، وتتيقـن من دقـة ما جـاء في نسختـك من كتـاب «المعـراج» أو «الصعود».

ستسافر بمفردك مثلما اعتدت في الأرض، بعيدًا عن الجولات السياحيـة وحافلتها مكيفة الهـواء، والخلفية الموسيقيـة والتعليقات المسجلـة قبـلاً، والمرشديـن السياحييـن الذيـن يتحدثـون لغات عـدة. مستغرقًا في قراءتك عن عالم الآخـرة، تتوقف عن الحوم والارتفاع كأنك ريشة لتنهمك في تأمل الملائكة النوريين، الطيور ذات الخضرة العجيبة، والأنبياء جلوس على مقاعد مضيئة، ملفوفة رؤوسهـم بأقمشـة صافية رائقة، أرواح من نـار، حدقات عيون تطـرف سبعين ألف مـرة في اليوم من خشية اللـه، أهداب طويلة باهـرة وجميلة مثل قوس قزح، مؤذنون صوتهـم عذب ينادون الأرواح المباركة إلى الله، فتهرع آلاف الخلق وتتقارب تبتهل التوحيـد الإلهي من جميع الجهـات. تلج إلى فيضهـم تلمح جسرًا بريقًا أكثـر رهافة من الشعرة أو من حـد السيف، تعبره الأرواح البائسة وتحاول أن تتوازن، مخافة السقوط في هاوية جهنم. تقلب صفحـات الكتاب محـاولاً أن تتخيل الملائكـة ذوات السبعين ألف

وجه، لكل وجه سبعون ألف عين، مثلها مثل المشاهدات المجهرية التي ستستقطب مواد متعددة، بانكساراتها الضوئية الرائعة، التأليه البصـري، والجمال المحيـر، ستلمح ثلاث شخصيـات مألوفة، يجلسـون إلـى طاولة دراسيـة مرفوعة على سقالــة، فيبدون مثل الناجيـن من الغرق الذين احتموا بجزيـرة مهجورة. تقترب منهم فتتأكـد أنهم «جورج صاند»، وعالم السياسة، والمحلل النفساني، لايزالون منهمكين في مناقشاتهـم النظرية، على الرغم من أنه لا أحد يحيط بهم أو يعير كلماتهم انتباهًا. وبدا هناك الشاب ذو الجلباب الرث هضيـم الوجه، يضـع طاقية العفريت، ويدخـن نارجيلة «الكيف» بينمـا يجلس القرفصاء عند بوابة «الحمام»، يقبض عليهم مع طاولتهـم واضعًا إياها على صفحة يديـه، ويبتسم ببشاشة طفل تملك عشًا للعصافير.

هل كان يحميهم من خطر ما؟ أم سينفخ فيهم ليذروهم مثل زغب النباتـات؟ أم ترى سيستيقـظ قريبًا في خصـه الحقير في «رياض الزيتون» ويقص على حارس الحمام فحوى حلمه العجيب؟

هل ستتجلي في حلمه؟

سؤال يفزعك: من الحالم ومن المحلوم به؟

-36-

جـذب الثور من قرنيـه، وتعلق بأهداب الطائـرة، وطار إلى القاهـرة. كانت المسافة مثل حلم قصير، تمكن من خلاله من تأمل تفاهة العالم، ضئيلاً مثل حبة الخردل في كف اليد. وعند وصوله، وقـع كل شــيء مثلما تنبـأت موظفـة الحسابات. لمـح بين رجال الشرطـة والمحققين عند نقطة رقابـة المسافرين شاب الحمام تكلل هامتـه هالة من الضيـاء الرصين. أدرك أن الشــاب كان يخترق الأجساد مـن دون أن يلحق بها ضررًا، ومـن دون أن تشعر بها أنفسهـم. قرر أن يتبع خطواته ويحذو حذوه ويفعل مثله. وبمجرد أن لمـس الآخر نعله مـن الأرض، يطأ هو مكانه فـي التو، يعبر الحواجـز، واحدًا تلو الآخر على النسـق نفسه، من دون أن يختم لـه أحدهم جـواز سفره، أو حتـى يلاحظ دخولـه. توقفت سيارة أجرة سوداء لامعة، مظهرها عظائي نهري حذر، تنتظر عند باب مغـادرة المسافرين وانطلقت حال ركبا فيهـا. عبرا بسرعة مدينة مهجـورة، تشبه المدن قبل الإفطار في شهر رمضان، فلم يصادفا سيـارات أخـرى أو أية إشـارات للمـرور، كان السائق يضحك ويصفـر ويصر على أسنانه، ويصـدر أصواتًا من حلقه، ويتنفس محدثًا ضجيجًا؛ كأنه ملبوس بأمل مرح وفوضوي.

أو كان يــدري إلى أين يسيــر بهما؟ لم يتبادلا كلمة واحدة، ولم يشــر حتى إلــى نقطة مقصده، لكن هذا الحــوذي - فضل أن يطلق عليه هذا الاســم - كان يعرف طريقه جيدًا وبدا راضيًا عن المهمة التي يقوم بها، ومنغمسًا في جولته الليلية والاستمتاع بعنفها.

هل واجــه جسدًا خفيفًا من البــرزخ، أم كان تجليًّا من تجلياته؟ حــاول عبثًا أن يكتشف صورتــه في المرآة الكفيفــة التي تعكس ما في الخلــف، بيد أن العمامة التي اعتمرهــا جنبته نظرات الآخرين الفضولية. هل كان يمتلك موهبة الكلمة، أم فقط يقدر على إصدار هذا السجل من الأصوات الخام، التي يؤديها من تأثر لرؤيا مبهجة أو من نشوة الإيلاج؟

مضــت المركبــة تقطــع بنعومــة ملغــزة الطريق عنــد ضريح «قايتبــاي»، وعلــى اليسار منها جبــل «المقطــم» المقدس، تسير السيــارة بمحــاذاة الأبــواب والأســوار الخلفية للقلعــة، ثم تنحدر نحــو «باب القرافــة»، فتتوغل فيه، وتستقر فــي النهاية بـ«مدينة الموتــى». لم ينر ضوء القمر الآثار الشاهدة والنصب التذكارية، أو قبــاب الأضرحة المخططــة، أو الشوارع المغبــرة القريبة من مسجــد «الإمــام الشافعــي». لاحــظ أن الحوذي أخــذ يسرع في صيحاتــه، واللهــاث المتشنج حيــن انحرف جهة اليميــن ليخترق الطريق، الذي عبره من قبل في الحقيقة والحلم، نحو المدفن الذي

نـام فيه خلال إقامته السابقة. تعرف عليه على الرغم من الضباب الكثيف، فتلمس البوابة الحديدية التي يسكّرها الكهل بحرص.

كانت مفتوحة فدفعها ثم أغلقها خلفه. وهجره رسوله والحوذي، سمع ضجيج السيارة وهي تنطلق وتبتعد عنه في سرية. تسلل بخطوات هادئة صوب الخص الذي يأوي فيه الحارس شيطانًا في قاع بئر. أترى هل اتخذ الكهل سبل حيطته الفطرية بترك الباب مفتوحًا أم أن المضيف أعد مفاجأة ما بالتواطؤ مع الحارس المشاغب الشيطاني؟. واصل سيره إلى أن بلغ السلم ومدخل الضريح، ثم دفع الباب برفق متلمسًا يبحث عن فراش الحارس إلى جوار بلاطة المدفن الصلبة. لا يزال العجوز في مكانه كما في السابق، تدلل على وجوده أنفاسه المتقطعة. استعد ليرقد إلى جواره حين سمع صوتًا جبارًا يأمره بغلق القبر. أطاع الأمر بسرعة فيما كان يحاول أن يحدد وسط هذا الضباب الكثيف والصمت المطبق مصدر الميكروفون أو مكبر الصوت الذي صدر عنه هذا النداء. وفجأة أضيئت شاشة تليفزيونية.

مستلقيًا في قبرك، مثل ميت.

(مـن أسبل جفنيك، وسد فتحتي أذنيـك وتجويف أنفك بالقطن، وربط ساقيك وفكيـك بشريط، وشبك يديـك على صدرك ووجه جسدك ناحية اليمين في اتجاه القبلة؟)

تتأمـل خيـالات خراب ودمـار: أسـوار من أحجـار سوداء، واجهـات منهارة، ركام مختلط من أسـلاك التليفون والكهرباء، حفر ضخمة من أثر القنابل، مداخن محطمة تطوقها أبخرة صفراء سامـة. تـدور الكاميرا بحركة بطيئـة في شماتـة، ووسط مشاهد النيران الشبيهة بيوم القيامـة، والصخور الكبريتية، والآبار تلفظ ألسنـة النار على خلفيـة شمس حارقـة وسوداء، أشـواط نهارية تظلم تدريجيًّـا، وسحب كثيفة ومعتمة، أضـواء قاطعة تنبعث من الأرضـ، ليـل اصطناعي مخيف. هـل تنفخ ريـاح عقيم، صلبة وقاسية مثل امرأة عاقر؟ سيقول الصوت: لا، هذه ليست رسومات «دوري» أو لوحـات «بوسكو». لا تبحث في «أناشيد الجحيم» أو «المعراج»، يظهـر نكير ومنكر يضحكان خـلال التشويش الذي يعترض الشاشة.

انظـر . . انظر جيـدًا لما صنعـت أيديكم، فما الحاجـة إلى أن نكـرر ما اخترعتموه أنتم ؟ نيران، ملايين البؤر النارية من جميع الأحجـام والأشكال، ألسنة لهب متموجـة وحادة، فوهات بركان تصـدر الكبريت الأحمـر، مخلوقات منصهـرة، أجساد مشوهة، وأخـرى لأطفال ونسـاء يحترقون مثل القطـن المندوف، دوائر «دانتـي» التسعة، ودرجـات جهنم السبعة في «كتـاب المعراج» بتعدداتها المتنوعة جميعها حاضرة هنا. إلا أنكم قمتم بخلط الأبرياء مـع المذنبين فعاقبتـم الأوائل، وكللتـم رؤوس المذنبيـن بأكاليل الغار.

أمعن النظر في هذا التجمع الفخور لآباء القذائف الباليستية ذات الرؤوس الكيميائيـة والنووية، والقنابل عديمـة الضغط والإبادة العلمية المقننة، تأمل هؤلاء المصنعين والخبراء ومصممي الأسلحة الذكيـة والنظيفة، التي توجه بأشعة الليـزر والشاشات. هم وقادة الطائرات الذين يلقون قذائفهم، ويبذرون الموت في الأرض من دون مبالاة مثل «ربات القدر». سوف يتألمون من عذاب خاص يجهله مؤلفو الكتب التي تشبعت أنت بها. واحدة من هذه الطائرات غير المرئية التي لا يتمكن الرادار من رصدها، يصوبون ضرباتهم ناحية هدف طاهر، غير معروف وبعيد، بأمر من القيادة العليا من دون التنبه؛ أن الشحنة القاتلة تتوجه صوب منزلهم.

أجل صوب أسرهم العزيزة التي يحملون صورها في محافظهم، أو يلصقونها عند مربع أجهزة التحكم في الجهاز، هذه الوجوه العذبة الضاحكة لأولادهم وزوجاتهم. تأمل وجوههم التي سحقها الرعب مصحوبًا بيأس أطرافهم المتشنجة وعجزها، وأفواههم المفتوحة على نواح بلا طائل، قبل أن تسحقهم الأسلحة الجديدة الفتاكة وتفتتهم.

مشهد استغرق ثواني، ولكنها ثوان ممتدة بلا نهاية، وتتكرر تريليونات المرات إلى يوم الدين.

تتردد ضحكات منكر ونكير في القبة وتتلاحق في صدى الصوت، فيما يبث التليفزيون مشاهد يختلط فيها الرعب بالحنان والسكون، ثم يقولون إن العقاب القاسي سينال من الأصوليين وتقنيتهم العلمية.

انتهى الشريط، وابتلع الظلام المدفن. شعرت بالقلق والخوف من أن يتركاك من دون أن تخضع للفحص الإجباري، فرفعت صوتك لتسأل عما قررا أن يفعلا بك: لقد أتيت برغبتك لتعرفه، لتعرف مصيرك، ولتخرج نهائيًا من الأربعينية.

تضاء الشاشة مجددًا، وتقرأ الرسالة الموجهة إليك: هذه مجرد رؤية. نحن بانتظارك هنا حين تموت بالفعل. بينما تنفصل عن حلمك، تسمع إلى جانبك شخيرًا خافتًا محتملاً للشيخ الكهل.

-38-

انتهـت الحـرب وحـل الشتات. أخـذ يتابـع من نافـذة منزله قافلـة الهاربيـن التعسة، فيما ألصـق أنفه في الزجـاج الذي كسته حدة أجـواء الفصل بالضباب. فـي البداية بدت قافلـة السيارات، الحافـلات والسيارات الرياضية الصغيـرة المحملة بكومات متاع وعائلات، ثم عربـات تجرها الحيوانات، محمـل عليها حقائب، وأطفـال، وخـراف، وفـي النهاية؛ صـف من النسـاء والرجال يرتجفـون جميعهم من البرد، منهكين من طـول المسيرة، شيوخ عاجزون ومرضى، أمهات يحملن أطفالهن على ظهورهن، على حافـة الهـلاك. وقفوا ينتحبـون أو يقضون حاجتهـم، أو يطلبون كسرة خبز، أو جرعات حساء من مواطنيهم، يبدون في حالة من الفوضـى. سيارات ودراجات بخارية متعطلـة، حيوانات نافقة، مراتب وأغطيـة متهرئة ملقاة في الطريق، وذلك خلال الهروب اليائس ناحية الجبـال. حرمهم الرعب من القصف، وقمع الجيش الوحشي من التفكير بحكمة، فأضحوا مثل قطيع بائس مرتعب، أو خلية نحل مدهوسة ومتناثرة. فهـذا الطفل يمسك بشقيقه الأصغر، وهـذا الكهل يحمل على كتفيه الجسـد الضامر العليل لزوجته، هل يعرفـون جميعًا إلى أين يذهبون ومن سيستقبلهم؟ وهل سيسمح لهم حراسـ الحـدود؟ أم سيدفعون بأعقاب أسلحتهـم؟ هل سيضعونهم خلف الأسوار في أماكن موحشـة؟ أم ترى سيعيدونه إلى أعدائهم

من دون هوادة؟ لم يبدُ أن أحدًا ما يعرف، أو حتى فكر في الأمر. هول الكارثة محق كل شيء، تركوا في العراء الخلاء البدائي لقصة قاسية متكررة؛ الرعب، وغريزة البقاء وحسب، هذا الضوء لحيوان مطارد يقبع في بؤبؤ العين، الشك والذهول لمن يقتل على يد جزار مجهول، أو خلال شعيرة ألفية للضحايا والنذور. جلس متكورًا على نفسه في مملكته الصغيرة يشهد هجرة الشعوب بكاملها، من دون قادة أو زعماء، يعبرون البحر الأحمر من دون النبي موسى المخلص، ولا أمل في أرض الميعاد عند نهاية هروبهم المرتكب الأهوج، أترى هل كانوا من الأكراد الناجين من مذابح حلبجة ودهوك والموصل؟ أم أنهم ببساطة ليسوا إلا مواطنين من بلاده، عبروا منذ اثنين وخمسين عامًا مضت من قريتهم القطالونية، وهم أشتات قذرون يضعون أثمالاً رثة بالية، يخلفون آثارًا من البراز والجثث؟ ترى هل يعرض التليفزيون صور ما يحدث في الوقت الحالي في أعقاب أربعين يومًا من القصف الجوي الجهنمي، أم أنه استدعاء لذكريات مدفونة في ذاكرته لشبح الحرب الأهلية؟

كان يشك، ولا يزال في شك.

حسنًا، من يكتب هذه الصفحة بحق؟ أهو الكاتب ستيني العمر منكبًا على طاولته، أم الطفل الغر البريء الذي شهد للمرة الأولى في حياته انهيار حلم ونهاية مباغتة لأمله.

قالــت له: هــل لاحظت ذلــك؟ إننا فــي نهايــة الأربعينية. يوم آخــر، ونص آخر وأنفصــل عنك، بعيدًا عن البــرزخ، لأتلاشى تمامًا إلــى الأبد في الخفية، إلى يوم البعــث العظيم. أخذت تتطلع لصورتــك بحــزن تتخللــه ابتسامة عابــرة ذائلة، مثلما فــي الأيام الخوالــي حين كانت تتــردد عليك فــي الأستوديو القديــم الخاص بك، ومعها ترجماتها فتتحدثان على ثربانتس، روخاس، دانتي، وابــن عربي. ومنحها لقاؤها غير المتوقع بك بعد عبورها مساعدة كبيرة؛ فعبء الأشياء التي لم تعبر عنها في العالم الشنيع ظل يتراكم بداخلهــا، كأنها حبر لا طائل منه في المحبــرة، يمنعها من الإفادة منه وضعها الحالي. فهل كان ذلك نتيجة عدم انفصالها الكامل عمّا هو محسوس، مثلما اعتقدت هــي؟ أم هي عين خيالك التي لم تقدر أن تتمثلها إلا في شكلها وهيأتها السابقين؟ وتعدد المفارقات الزمنية والهذيان والقفزات الزمكانية خلال فترات تجوالكم، هل هو نتاج الوجود الواقعــي؟ أم يخضع للقراءات المتعمقــة لـ «ابن عربي»؟ تعجز عن الرد اليقين، فاكتفيت بتأملها تطوقك الشكوك، فيما بقيت هــي أو خيالها بنظر ضال شاخص إلــى الأسطح وحجراتها، وقبة الأوبرا الخضراء المائلة للاصفــرار، والأشباح البعيدة لناطحات سحاب «لاديفانس».

هل حانت ساعة الوداع؟ رأيتها تنهض من مجلسها، وتسألك مجددًا إذا كان الدخان يزعجك. قالت: سيجارة «جلوزبلو» أخيرة. مددت إليها المطفأة الافتراضية، كما هي العادة، ومكثت مبهوتًا إلى جوار مكتبك المغطى بالأوراق والقصاصات.

هل كانت ترتدي كنزة صوفية وبنطالاً جينزا مثل ذاك المساء الذي شاطرتكم فيه العشاء ولم ترها مجددًا؟ سمعتها: اكتب، اكتب عني ثانية. فاهتمامك واهتمام من سيقرؤونك في المستقبل سوف يبقيني على قيد الحياة.

-40-

حـــدث كل ذلك خلال فترة احتضـــاري القصير. وحين انتهيت من الكتـــاب نهضتُ مـــن الفراش الذي رقـــدتُ فيه مـــن دون أن يلحـــظ أحد، ارتديـــت بذلتي الوحيدة التي حافظـــت عليها، أحكمت عقـــدة رباط العنق القديـــم المنسي، واستقللت الحافلـــة للذهاب إلى مقر المحكمـــة. استعلمت من حارس الأمن الذي دلني بدوره على المصعد الذي حملني إلى الدور السابع؛ حيث يلتقي جميع المدعوين إلـــى الأربعينيـــة. كان المكان خاليًا حين وصلـــت، ولكنني اتبعت نصيحة الساعـــي، وطرقت الباب الصلب لمكتـــب التحقيقات الذي عُلقت عليه لوحة معدنية مذهبة، نقش عليها اسما منكر ونكير.

انتـــهت

المؤلف فى سطور:

خوان جويتيسولو (برشلونة، ١٩٣١)

أحد القامــات الأدبية الأشهر في الأدب الناطق بالإسبانية تنوع نتاجــه الأدبي ما بين الرواية والقصة وأدب الرحلات والدراسات النقديــة والفكرية. وبدا جليًا من الكتابات الأولى للكاتب القطالوني اهتمامــه بقضايــا كونية والتعدديــة الثقافية ورغبته الجــادة وعمله الحثيــث من أجل سبر أغوار عوالم مغايــرة والتعرف على الآخر معرفــة صادقة بعيدة عن الآراء المسبقة. وليس أدل على ذلك من شهادة الكاتب المكسيكي الحائز على نوبل كارلوس وفوينتس التي كشفت وعضدت هذا المنحى، وبالمثــل آراء النقاد ولجان التحكيم التــي تناولت أعمالــه وارتــأت التعددية والانخراط فــي الثقافات المتنوعة ليس فقط بهدف التعرف عليها، بل بالمثل تلمس طرائق الالتقاء بينها ودروبها، وبين الثقافــة الإسبانية بتكويناتها المتنوعة والمتشعبة، التــي تحل فيها الثقافة الإسلاميــة العربية ركنا لا يقبل النــزاع. بهــذا الشكل تطــل كتابــات جويتيسولو بسماتهــا الكونية السرديــة لتجمــع بين الشــرق والغــرب والأيديولوجيــات الدينية والفكريــة بأنواعهــا، وهو ما تتكئ عليه بنية روايــة «الأربعينية» (١٩٩١).

المترجمة في سطور:

د. عبير محمد عبد الحافظ

- أستاذ اللغة والأدب الإسباني بقسم اللغة الإسبانية جامعة القاهرة.
- درست الماجستير والدكتوراه بجامعة القاهرة وجامعة كومبلوتنسي مدريد.
- لها العديد من الأبحاث المنشورة في الدوريات العلمية الدولية المحكمة بالعربية والإسبانية.
- أشرفت على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.
- أستاذ زائر بجامعة ثاراجوثا، وكاستيا لا مانشا، وأوتونوما وكومبلوتنسي مدريد.
- لها ترجمات متنوعة من أدب إسبانيا وأمريكا اللاتينية (روبرتو أرلت، وخوليو كورتاثار، وخوسيه ماريا ميرينو، خورخي مانريكي، وبدرو مير، وغيرهم).
- تشغل حاليا منصب مدير مركز الدراسات والثقافات الأيبروأمريكية بجامعة القاهرة.

التصحيح اللغوى: هبة الله محمد

الإشراف الفنى: حسن كامل

يتخذ جويتيسولو من شعيرة الأربعينية، أو ما يطلق عليه في مصر حداد الأربعين يوماً التي تعقب رحيل المتوفَّى، رحلةً روحية صوفية، ينطلق منها ليرصدها في قالب يغلب عليه هوس المعرفة وتقصي أسرار العالم الآخر في حياة ما بعد الموت والبعث، ليبدأ سفره صاعداً إلى السموات السبع في رحلة تشبه الإسراء والمعراج، يستلهم فيها ومضات وإشارات من أمهات الكتب التراثية الإسلامية مثل "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري، و"المراتب السبعة" لإمام العارفين والشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، مروراً بشيوخ الصوفية وشعرائها، فتطالعنا باقة من أسماء مثل جلال الدين الرومي، والسهروردي، وغيرهما من رموز التراث العربي الإسلامي إلى جوار المبدعين والمفكرين الغربيين والأسبان، مثل دانتي، وميجيل دي ثربانتس، وكيبيدو وسورخوانا اينيس دي لا كروث وغيرهم.

وإن كانت بوصلة الحكي تتجه دوماً خلال الذهاب الأربعيني إلى مدينة القاهرة، حيث المساجد والمقابر والأضرحة، واستشراف الأجواء السحرية الغامضة التي تعقب الأربعينية.

صورة الغلاف للكاتب خوان جويتيسولو
تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح